آخر لحظات الإزعاج

رواية

آخر لحظات الإزعاج

رواية

تأليف :

وائل عبد الرحمن

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

تحرير أدبي:

سندس الحسيني

مراجعة لغوية:

عزة أبو الأنوار

رقم الإيداع: 2016/22453

الترقيم الدولي: 978-977-820-004-1

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

آخر لحظات الإزعاج

وائل عبد الرحمن

رواية

«ومـا أن تركـه شريـف، حتـى أخـذ هاتفـه المحمـول وفتـح فيسـبوك، ولم يفكـر أو يلحـظ أنـه الخـاص بشريـف وليـس خاصته.. وكتـب منشـورًا مختـصرًا:

رسـالتي لأبشـع دنيـا.. قصتـي.. لـلي يعرفنـي والـلي ميعرفنيـش.. هحكيهـا عـلى يوتيـوب السـاعة أربعـة بالظبـط.. قبـل مـا أنتحـر. أشـوفكم في جهنـم».

-١-

كان يومًا عاديًا في ذلك الهايبر ماركت العملاق ذي الإضاءة النيون الساطعة، التي تجعل للمنتجات بريقًا إضافيًا. عروض المتجر من خصومات تبدو غير عادية، أو عروض «اشترِ ثمانين قطعة واحصل على اثنتين من الحجم الصغير مجانًا»، تتكفل تلك العروض بإضفاء شعور زائف بالانتصار لدى المستهلكين، يقويه قطعتا زلابية مجانيتان يحصل عليهما من الفتيات اللواتي يقفن خصوصًا لهذا الغرض، وكيس شامبو مجاني من عارضات أخريات، مع توزيع عبارات التظرف على كل منهن، كل هذا يعطي كل هؤلاء شعورًا بامتلاك المكان كغنيمة حرب، والغريب هو ازدياد ذلك الشعور بازدياد المشتريات وتضخم الفاتورة عند الكاشير. للشراء شهوة على أي حال.

كان يومًا عاديًا والأسر والأفراد يدفعون عربات جمع البضائع بين الممرات، متوقفين عند كل رف ليلتقطوا زبدة الفول السوداني للمرة الأولى في حياتهم، ويقرر معظمهم أنها جديرة بالتجريب، ويستمرون ليضيفوا شامبو مصنوعًا من زهور تنبت في الهيمالايا، شيء جدير بالتجريب أيضًا، ويستمرون ليضيفوا لحم الكابوريا المُعلَّب ذا الطعم الشبيه بالصابون، دون الحاجة لتذوق الصابون سابقًا للتأكد؛ هما نفس الطعم بلا شك. ويستمرون ويضيفون بضائع للعربة ويكملون التسوق.

كان يومًا عاديًا، وحاول المذيع الداخلي الذي قطع صوتُه المبتهجُ الموسيقى الدائرةَ، حاول جعل اليوم يبدو غير عادي

بسبب العروض المضاعَفة الصالحة لمدة ساعة، حاول ونجح كالمعتاد، بينما الناس يهرولون نحو أرفف العروض المذكورة قبل أن يتركوها كهيكل سمكة مرَّ عليها عشر قطط تباعًا.

كان يومًا عاديًا والناس تسير برتابة بعد انتهاء ساعة العرض.

حتى اقتحم ذلك الشخص غير العادي المكان.

شاب في أواخر العشرينيات، نحيل كعود قصب، بلحية طويلة لا توحي هيئتها أنها ذات أي غرض ديني أو جمالي، بل هي فقط متروكة هكذا منذ مدة كبيرة. وبشعر قصير لم يسمح طوله بأن يكون أشعث ككفار الأفلام القديمة. عينان جاحظتان مذعورتان لا تهدأ مقلتاهما، أسفل جفنيه سواد واضح. ساعته الثمينة وملابسه يشيران إلى مستوى فوق الجيد، لكن حالتهما الرثة توحيان بأن ثمة إعصار قد مر على هذا الشاب قبل أن يصدمه قطار مُلقِّيا به داخل الهايبر.

بتوتر يليق بهيئته، أخذ يتحرك بتعجل وارتباك بين الممرات، ورأسه لا يكف عن الدوران بحثًا عن ذلك الذي يبحث عنه، وهو ينظر في ساعته كل بضع ثوانٍ. رغم كل تلك العروض، ماذا بحق السماء يوجد هنا قد يجذب شخصًا كهذا برغبة محمومة كتلك ليبتاعه؟! يصطدم برب تلك الأسرة ولا يعتذر، ويستمر في بحثه ولا يسمع السبة التي قذفه بها، يسير بظهره قليلاً أثناء التفاته المحموم، فيصدم شخصًا ليوقع طبق البيض من يديه، ليتحول إلى ما يشبه العجة النيئة على الأرض، ويتركه كلاهما ويستمر كل منهما في سيره كأن شيئًا لم يكن. يحاول أن يتفادى هذا وتلك، فيكاد أن يصدم طفلاً، فيلتفت إليه غاضبًا مُشهِرًا لعبته البندقية نحوه ويطلق ثلاث رصاصات، مُصدِرًا

أصوات بيو بيو بيو. ويستمر الشاب في القفز وتفادي الناس والعربات والبضائع. ليجد أخيرًا الركن الذي يريده على مقربة، فلا تهدأ خطواته، بل تزداد تلاحقًا.

يقتحم المساحة بين موظف المبيعات ومشترٍ ويقطع حديثهما دون تفكير، ويعلن عن رغبته مباشرة:

- عايز لابتوب.. دلوقتي.

أغرت تلك الجدية الحاسمة موظف المبيعات، فقرر الاعتذار بلطف للعميل الثرثار، ليجده قد تركه بالفعل واتجه نحو رف مساحيق الغسيل ليقارن بين منتجاته. رسم البائع ملامح الخطر على وجهه وسأل بجديةِ رجلِ مخابرات:

- لو عايزه للألعاب أنا بنصحك تشتري كارت فيجا عالي، بس لو عايزه عشـــ...

- أي حاجة، أي لابتوب، أي نوع، يكون فيه بس كاميرا ويكون متسطب عليه ويندوز، عايزه شغال دلوقتي.

يقال إن إدمان الكمبيوتر والإنترنت من أمراض العصر، لكن ليس إلى هذا الحد.

أجاب الموظف بصبر وابتسامة مرسومة على محياه:

- حضرتك كلهم فيهم كاميرا، بس الويندوز دي صعب، عشان كلهم بصناديقهم...

قاطعته النظرة النارية من الشاب غريب الأطوار، فاستدرك البائع:

- مش مهم، اختار واحد من المعروض وأنا هجيب كرتونته

وأوراقـه، وأمـري للـه هبقـى أظبـط جهـاز تـاني جديـد أحطـه في العـرض بـدل الـلي هتاخـده ده.

صاح فيه الشاب بصبر نافد وهو ينظر في ساعته مرارًا:

- أي حاجة.. أي.. حاجة.

ازدرد البائـع لعابـه وأدرك أنـه يجـب التخلـص مـن هـذا الشـاب سريعًـا، فاختـار بالفعـل جهـازًا مـن بـين الأجهـزة المخصصـة للعـرض وفـك قفـل سلسـلته وأخـرج كارتونتـه وبـدأ تجهيـز فاتورتـه سريعًـا. ابتعـد الشـاب بالفاتـورة خطـوات قبـل أن يسـتدير عائـدًا للبائـع طالبًـا شـاحن سـيارة، فـرد البائـع مندهشًـا إنـه لا يوجـد مثـل ذلـك للابتـوب، فسـأله الشـاب عـن مـدى البطاريـة، وتلقَّـى الإجابـة بأنهـا مـن خمـس إلى سـت سـاعات، ثـم اسـتطرد بانكسـار وحـزن غريبين:

- كويسين.. مش عايز أكتر من كده.

عـاد بـشرود للسـير في الأروقـة باتجـاه الكاشـير، ثـم تذكـر شـيئًا ونظـر لسـاعته، فـزادت سرعتـه وعـادت تحركاتـه للتوتر. أخـذ يتنقل بـين الطوابـير الطويلـة أمـام الكاشـير، يحمـل كل مـن المنتظريـن بضائـع تكفـي محـلاً متوسـط الحجـم. هـؤلاء القـوم يملكـون الزمـن بأكملـه بالنسـبة إليـه؛ قـرر أن يقتحـم. هـي فاتـورة واحـدة على أي حـال. تجـاوز الواقفـين واحتـكَّ بأجسـادهم وعرباتهـم، وتعثَّـر فيهم، ووقعـت امـرأة منهـم، وقبـل أن يغضـب زوجهـا كان الشـاب قـد وصـل إلى بدايـة الطابـور ودفـع الرجـل المنهمـك في رص مشـترياته عـلى سـير الكاشـير، ودس الفاتـورة بعنـف في يـد الكاشـيرة، التـي احتبسـت الكلـمات في حلقهـا مشـلولة التفكـير. حـدث كل هـذا في ثـوانٍ قليلـة ألجمـت كل الواقفـين، إلى أن تجـرأ أحدهـم وصـاح في الشـاب بحِـدَّة، ليتبعـه الجميـع في وصلـة هجـوم وسـباب جماعيـة

محتدمة حقًا؛ ازداد توتر الشاب وهو لا يكف عن النظر لساعته والعبث في لحيته وشدها لأسفل، فبادل الصياح بصياح أشد، تناول فيه ألفاظ تتضمن «أهاليكم.. أشكالكم..» ثم قال: «هي فاتورة واحدة، جبتولي شلل»، ووجَّه صياحًا مماثلاً للفتاة على الكاشير الواقعة في حالة تجمد كاملة، آمرًا إياها وهو يرتعش من الانفعال أن تحسب له الفاتورة وننتهي من كل هذا. تقمص أحد رجال الطابور دور البطل، فانطلق في وصلة تقريع وسباب وهو ينقض على الشاب النحيل، ومن ورائه باقي الرجال ينوون المشاركة في الحفل، فامتدت يد الشاب تلقائيًا ليتناول أي شيء من حوله، فالتقط برطمان نوتيلا عملاقًا رفعه وهوى به على رأس قائد الهجوم، ليتحطم إلى قطع ويغرق الرجل في الشوكولاتة حرفيًا وهو ينهار أرضًا، بينما تراجع الحشد عن فكرة الاشتباك التي وُلِدت منذ ثوانٍ وهم يتقهقرون، وانفجرت فتاة الكاشير في صراخ هيستيري مستمر، جلب كل أفراد الأمن، بينما الشاب يأمرها بكلمات محمومة أن تحسب له الفاتورة لينصرف. أحاط رجال الأمن المتوترون بالشاب، وانقضَّ أحدهم عليه من ظهره، ليقعا معًا، وقبل أن تتحول المعركة إلى صراع قططي، انتزع الشاب الذي تعاظمت الأمور من حوله المسدس من حزام فرد الأمن، وأطلق ثلاث رصاصات تكفلت بتحويل المكان إلى مسرح مبارزة في الصراخ من الجميع، نساء ورجال، وقد هرب أغلبهم إلى داخل المتجر بعيدًا عن الاشتباكات، وقام رجال الأمن بدور فعّال بأن تكتلوا معًا وابتعدوا شاهرين أسلحتهم بالمقابل، تاركين الشاب الذي صار مُسلَّحًا والفتاة المسكينة وجهًا لوجه.

كان التوتر قد بلغ منتهاه عند الشاب الذي زاده المسدس

ورصاصاتـه المنطلقـات ارتجافًـا، فأخـذ يأمـر فتـاة الكاشـير الباكيـة بكلـمات عصبيـة غـير مفهومـة، لكنهـا التقطـت الفاتـورة بيـد ترتـج مـن الرعـب وحسـبتها، فأخـرج الشـاب حافظتـه وجاهـد ليخـرج منهـا بطاقـة الائتـمان دون إفـلات المسـدس، وتمـت العمليـة سريعًـا. انطلـق بعدهـا الشـاب جريًـا إلى ركـن الاسـتلام وهـو يلـوح بمسدسـه كأنـه لـص، ومـن دون تحقـق مـن أي شيء أعطـاه الموظف اللابتـوب، الـذي قطعًـا لم يتخيـل صانعـوه أن يحـدث كل هـذا مـن أجلـه في يـوم مـا. أخـذه الشـاب وانطلـق ركضًـا في اتجـاه موقـف السـيارات، ليُخلِّـف مـن ورائـه إعصـارًا مـن الـصراخ والمكالمـات الهاتفيـة والإشـارات اللاسـلكية، ولم يلحـظ أحـد فتـاة الكاشـير التـي راحـت تترنـح لتفقـد وعيهـا وحيـدة.

انطلـق الشـاب بسـيارته مُصـدِرًا صريـرًا أمريكيًـا وبجـواره اللابتوب الـذي لم يسرقـه، وفي يـده المسـدس الـذي أعطـاه شـعورًا إضافيًـا بالأدرينالـين لم يكـن يحتاجـه في الواقـع. قـاد مسرعًـا نحـو محطـة وقـود قريبـة ليقتحـم الماركـت الأنيـق بداخلهـا. لم يسـتوعب أحـد أنـه أمـام شـخص ذي لحيـة غـبراء وحالـة رثـة يبـدو فاقـدًا للتحكـم في أعصابـه وبيـده مسـدس. بنفـس التحـركات المحمومـة تنـاول مجًـا حراريًـا كبـيرًا، ووضعـه بعنـف أمـام الموظـف عـلى الكاونـتر الرخـام، طالبًـا منـه أن يمـلأه عـن آخـره بالقهـوة، ثـم أخـذ علبتـي سـجائر، وتكـرر نفـس السـيناريو لكـن دون اشـتباكات، وانتهـى بفيـزا الشـاب يتناولهـا بعـد أن دفـع قيمـة الأشـياء التـي لم يأخذهـا عنـوة، وفـرّ هاربًـا مـن الماركـت وسـط ذهـول كل الحاضريـن.

قـاد سـيارته بسرعـة جنونيـة، حتـى خـرج مـن الضاحيـة، ووصـل إلى الهضبـة التـي ينشـدها، وقـاد سـيارته غـير مبـالٍ بحـدة المنحنيـات شـديدة الخطـورة، ولا بسرعتـه التـي لا تتوافـق معهـا،

ولا مـع درجـة الميـل الصارخـة، حتـى بلـغ قمـة الهضبـة بمعجـزة مـا، وتوقـف في مـكان مهجـور تمامًـا، يـرى منـه العـالم، ولا يوجـد فيـه أي مخلـوق يتنفـس. تـرك المسـدس أخـيرًا بإهـمال عـلى الكنبـة الخلفيـة، والريـاح تهـب حاملـة ذرات الرمـال التـي تصطـدم بهـا سـيارته، وانهمـك في تجهيـز اللابتـوب وضبـط وضعيتـه والكامـيرا بأعـلى شاشـته وتوصيلـه بالإنترنـت، مـن خـلال الموبايـل الـذي حوَّله إلى راوتـر hot spot بخاصيـة tethering، وهـو منهمـك في السـب واللعـن صارخًـا «تفاصيـل تفاصيـل تفاصيـل!». أتـم تجهيـز كل شيء أخـيرًا، فهـدأ قليـلاً وتبـدل توتـره بتوجـس وحـزن لا تخطئهـما عـين. أشـعل سـيجارة بيـد مرتعشـة، ونظـر في سـاعته ليجدهـا ٣:٥٠ عـصرًا، أمامـه عـشر دقائـق ليبـدأ.

مـر الوقـت بطيئًـا وهـو يدخـن السـيجارة ويرشـف القهـوة، وهمـوم العـالم عـلى وجهـه تعذبـه.

3:59

أخـذ يفـرك ويزفـر ويتحـرك في جلسـته، حتـى مـرت تلـك الدقيقة الأخيرة.

4:00

زفـر زفـرة حـارة أخـيرة علَّهـا تخفـف مـا يحـترق بداخلـه، وكأن مـا حولـه تفاعـل معـه، هبـت ريـاح سريعـة أكـثر كثافـة بالرمـال قبـل أن تخمـد، كأنهـا سـتتابع مـا سـيحدث.

فتـح الشـاب صفحتـه عـلى يوتيـوب، وضغـط Live Broadcast ليبـدأ بثًّـا مبـاشرًا لفيديـو سـمَّاه:

.Nejkrg gnerjgner gerngrngo

كتبها هكذا بعد أن طلب منه يوتيوب تسمية الفيديو قبل أن يبدأ البث، لم يحاول أن يفكر في أي تسمية، فقط ضرب حروفًا عشوائية وأنتج هذا الاسم المعبر حقًا عما بداخله، قام بمشاركة الفيديو وسعل بشدة، وتكلم أخيرًا:

- في الميعاد بالضبط.. ها أنا ذا.. للمرة الأولى، والأخيرة.

ترى من منكم ظنها كذبة؟ ومن صدقني ولم يكترث؟ ومن صدقني ويشاهدني الآن؟ لا يهمني.. لا يهمني إطلاقًا.. لا يهم بأي حال من الأحوال.

أشعل سيجارة أخرى باضطراب واستمر في الرشف من كوب القهوة الضخم، نفث نفسًا كثيفًا واستمر:

- عمومًا.. لمن يعرفني أو لا يعرفني.. هذه هي رسالتي الأخيرة قبل أن أغادر دنياكم. لن أنتحر كما يسمونها، فقط سأغادر إلى عالم آخر، حتى لو لم أجد هذا العالم، ووجدت ربي، أثق تمامًا أنه سيغفر لي؛ هو يعرفني ويعلم أني لم أتمنَّ الشر قط لمخلوق، بالعكس من ذلك تمامًا. هو يعلم أنني لم أؤذ حتى حشرة. ويعلم كل ما عانيت. سيسامحني.

سكت طويلاً تلك المرة ليسيطر على أعصابه، رمى سيجارته المنتهية وأشعل أخرى، وقال بحزن عميق:

- وأرجو أن يسامحني والداي، صبرتما كثيرًا حتى وهبكما الله إياي.. أعلم هذا.. أرجوكما لا تعتبراني ابتلاء، سأغادر، لا مكان لي هنا، سامحاني.

عاد إليه انفعاله سريعًا واستطرد:

- وأتوجه الآن بحديثي إلى أي قملة تافهة وأي برغوث حقير

يشـاهدني في انتظـار اللحظـة المشـهودة، فقـط لمشـاهدة شيء غريـب لا يحـدث كثـيرًا، وفّـر وقتـك يـا صفـريّ الـوزن، يـا أقـل تأثيرًا بكثـير مـن جرثومـة ضعيفـة، لـن أفعلهـا عـلى الهـواء، هـذه رسـالة المغـادرة، سـأقول فيهـا كل مـا حـدث.. ليكـون هـذا هـو أثـري الوحيـد في هـذه الدنيـا. لا يهـم إن كان يشـاهدني شـخص أو مدينـة أو لا أحـد بتاتًـا.. لا يهـم.

هي رسالتي.. أنا.. سأحكيها كيفما أشاء.

سأحكيها من البداية.

-٢-

دعنا من كل هذا بعض الوقت، فلنترك الكاميرا والقهوة والانتحار ذا البث المباشر، ونعود بالزمن قليلاً للوراء، ليس قليلاً، بل كثيرًا جدًا، إلى ما بعد بدايته بقليل، ولنر هذا السكون الكامل المريح في تلك القطعة الغَنّاء من الأرض. صمت مطبق مريح يتخلله كل حين وآخر صوت ناعم لطائر سابح في الهواء، فوق تلك الأعشاب الخضراء الممتدة إلى اللانهائية على أرض منبسطة. سماء زرقاء صافية إلا من بعض السحب ناصعة البياض، تنساب في فلكها ببطء مطمئن. أسراب طيور كثيفة تُحلِّق دون أدنى صوت. البحر الشاسع مستقر تمامًا إلا من حركة خفيفة على سطحه، يصنعها النسيم الذي يمر فوقه بنعومة. قطعان من الحيوانات تسير حينًا وتقف أحيانًا لتأكل أو تشرب، في صمت تام. وهؤلاء البشر القليلون الذين يعيشون على تلك القطعة الكبيرة من الأرض الهادئة التي لا تعرف إلا السلام الكامل والاتزان الشديد.

تقول تلك الأُسطورة القديمة إنّ حارس الزمن كان جالسًا حينها يستمتع بمشاهدة الكون، وتناغُم وتناسُق عناصره، مع مفرداته ومكوّناته. كانت مهامه تتمثل في حساب الزمن، وتدوينه في سِجِل من سبع صفحات. كل يوم في صفحة مقسومة إلى نصفين، تشرق الشمس فيكتب في النصف الأيمن الأبيض «اليوم الأول من الأسبوع رقم كذا»، ويراقب انسياب عناصر الكون من بشر وكائنات حية وطبيعة فاتنة، ويكتب مقدار الطاقات بعد

تصنيفها، ترتفع درجة حرارة الشمس (طاقة سلبية)، فتترعرع تلك النباتات (طاقة إيجابية)، وتتبخر تلك الذرات من البحار (طاقة سلبية)، فتتكثف في الطبقات الباردة الأعلى (طاقة إيجابية)، فتتكون في سحب متحركة (طاقة إيجابية كامنة)، فتصدم بعضها بعضًا وتتساقط أمطارًا (طاقة إيجابية)، تتأذى من الأمطار قطعان من الحشرات (طاقة سلبية)، ويتغذى ما بقي منها حيًّا على النباتات التي ترعرعت (طاقة إيجابية)، ويتحلل ما مات منها فيغذي الأرض (طاقة إيجابية). يرغب هذان الشخصان في الحصول على تلك الثمرة (طاقة سلبية)، يظفر بها أحدهما (طاقة إيجابية)، يجد الخاسر ثمرة أخرى فيأكلها (طاقة إيجابية)، يحب هذا تلك ويتزوجها (طاقة إيجابية)، تحب تلك هذا وتنجب منه (طاقة إيجابية)، يموت هذا (طاقة سلبية)... وهكذا، في انتظام وطمأنينة.

يحل الليل ويستكين كل شيء، فيكتب حارس الزمن في نصف الصفحة الأيسر الأسود، مجموع طاقات اليوم وأحيائه وأمواته، ويجمع ويطرح ويقسم، حاصلاً على نفس النتيجة في كل يوم، اتزان. يقضي ما تبقى من الليل في التسبيح، حتى تشرق الشمس من جديد، ويعيد الكرة.

يومًا بعد يوم وصفحة وراء صفحة، إلى أن ينتهي السجل سباعي الصفحات، فيقلبه للصفحة الأولى التي انتقل ما فيها لسِجلّ آخر أكبر، وصارت فارغة بيضاء من جديد، في انتظار تدوينات جديدة ليوم جديد، بنفس المُحصِّلة المعروفة.

رغم أن الملل ليس من مفردات هذا الكون، لكن هذا الحارس قد دَبّت فيه الرغبة في أن يأتي من يَجلِس معه ليُشاركه التأمُّل والاستِمتاع بكل هذا الجمال، وإعجاز التوازن الذي لا يخطئ

أبـدًا. حلّـق في النسـيم نحـو أضخـم شـجرة في الأرض، عملاقـة الجـذع، كثيفـة الأغصـان والأوراق، شـاهقة الارتفـاع. راسـخة كأنهـا خُلقـت مـع الأرض ذاتهـا، كأنهـا قطعـة منهـا. كان يشـعر بالحـراك منتظـمًا دؤوبًـا داخلهـا، همهـمات هادئـة، ونبضـات منتظمـة متباعـدة. مـلأ كفـه بشربـة مـاء مـن نهـر هـادئ متلألـئ قريـب، وحلـق عاليًـا حتـى قمـة الشـجرة، حيـث فتحـة صغـيرة في جذعهـا، وسـكب حفنـة المـاء بداخلهـا، وانطلـق يدعـو ربـه ويتوسـل أن يخلـق لـه ذلـك الأنيـس الـذي تمنـاه. حتـى حَـدثَ بالفِعْـل ذات يـوم أن ازدادت التحـركات والنبضـات داخـل الشـجرة، مـع تحـركات أكـثر كثافـة وانتظامًـا مـن الأغصـان، كأنهـا تنقبـض عـلى الشـجرة ثـم تنبسـط، مـرارًا وتكـرارًا دون توقـف. عـرف حـارس الزمـن أن رغبتـه اسـتُجيب لهـا، ففـرح فرحًـا شـديدًا، شـاعرًا بـأنّ هـذا الـذي بداخـل الشـجرة يتمتّـعُ بالشّـفافية والجـمال، وسَيُشـاركه، حَـالَ اكتـمالِ نمـوّه وخروجـه للعـالم، الاسـتِمتاع بالتناغـم الكَـونيّ المُبهِـر.

يعـود إلى الانهـماك في مهمتـه الأزليـة، فيرتعـش القلـم في يـد الحـارس ذات مـرة أثنـاء تدوينـه لليوميـات، ويستشـعر القلـق. يراقـب ليجـد موجـة غاضبـة تكونـت في البحـر قبـل أن تهـدأ سريعًـا وتسـكن، فيـزداد قلقـه. يَكتشـفُ الحـارسُ يومًـا بعـد يـوم أمـرًا خطـيرًا، يَكتشـف أنّ هـذا الكـوْن بِجانـبِ جَمالـه المكْتمـل، قـدْ خُلـقَ في حالـة اتّـزانٍ دَقيـق، وحَسّـاسٍ للغايـة. وزنُ ريشـةٍ إضـافيّ كفيـلٌ بـأنْ يهـدمَ كلَّ شيء. أيقـن هـذا بعـد أن انكسر سـن القلـم، في نفـس اليـوم الـذي لم يتـم تجميـع طاقاتـه بالاتـزان مثـل باقـي الأيـام. ثمـة شيء مـا حـدث.

كلّ يـومٍ يمـرّ، كان يـزدادُ نُمـوّ ذلـكَ الكائـن في جـوف الشـجرة، ويـرَى حَـارِسُ الزّمـنِ الكـوْن يختـلُّ اتزانُـه شـيئًا فشـيئًا.. شرْخٌ هنـا،

وتصدّع هُناك، واهتزازٌ هُنا، وارتِجاجٌ هناك. والأدهى هو عدم تساوي مجموع الطاقات سلبًا وإيجابًا حين يجمعها في كل مساء. صارت تلك هي القوانين الجديدة، لم تعدْ الأمورُ كمَا كانَت.

ارتَبكَ الحَارسُ وفكّرَ كثيرًا، وهداه عقلُه إلَى أنْ الحل يكمن في أن ينقسم هذا الكائنِ الجديد إلى اثنين، ليعود التوازنُ للكونِ منْ جَديد، فكرر ما فعله ذاته، لكن ما لم يعرفه أنه لم يفلح تمامًا تلك المرة. استجيبت رغبته بالفعل، لكن ليس بكائن جديد، بل بانبثاق كائن آخر من الكائن الأول في نفْس المكانِ الضيّق، فأصْبَحا معًا أوّل تـوْأمٍ يعْرفُه الكون. وكانَ أوّل ما فَعَلَه الكائنُ الجَديد، بَعْد انبثاقِه منْ أخِيه، أنْ رَفَسَه دُونَ قصدٍ بِقَدمِه في أنفِه بعنْف، ما أثَارَ الأول بشدّة، مُعتبرًا نفْسَه صاحِب المكانِ الأصليّ، وأنّ هَذَا الجديد هو ضَيْفٌ دخيل. فَرَدَّ تِلكَ الرّفْسة، بلكمةٍ شديدةٍ في عينِه، شَعرَ على أثْرها بظلمٍ واضّطهاد، وشعر بكُره شديد.

اتَّزن القلم في يد الحارس، وعادَ فعلاً الاتّزانُ النسبيّ للكوْن، وتألّق جمالُه منْ جَديد، لكنْ ذلكَ الحارس لم يتبدّدْ قلقُه. تلكَ التّحرّكات المَحمومة القادمة من الشجرة، وتلك الاضطرابات، جَعَلتاه يوقنُ أنّ التوازنَ قدْ عادَ بالفِعْل للكوْن، إلا أنّ هذَين، مَنْ تكوّنا، قَد اجْتمعت عِندهما كلّ الطّاقَةِ السّلْبِيّة التي تولّدت بالفعل عِندما تَكوّنَ الكائنُ الأوّل، وتَرَكّزت مؤقّتًا بجوف الشجرة عِندمَا تَكوّنَ الكائنُ الثاني، الذي أَعَاد خَلقه الاتزَانَ للكوْن، وخلق حنقُه مَشَاعرَ الغضبِ لأول مرة، حبيسة إلى أن تخرج للعالم.

لنْ يلبث التناغمُ الكونيّ أنْ ينهَر، فوْرَ خُروجِهما معًا بالفعل

إليه.

كانَ يشْـعر أنّـه مِـنَ الـضّروريّ بشـدّة أنْ يَخـرجَ الكائـنُ الأولُ قَبـل أخيـه المنْشـطِر عنْـه، لـيرى الكـون أولاً ويـزداد خـبرةً تؤهّلـه لامتِـلاكِ زِمـامِ الأُمـورِ مُسـبقًا.

اسـتعدل الحـارسُ الكائنَـيْنِ داخـل الشـجرة ليَضْمـنَ خُـروجَ الأولِّ للعـالم قبْـلَ الثـاني، بأسـاليبٍ غَريبـة، كانَ منهـا أنْ أَدخـلَ ثُعبانًـا كَبـيرًا إلى جوفهـا مُمْسـكًا بذيلِـه، ليَدْفـعَ الكائنَـيْن دَفَعَـاتٍ كَثـيرة، تضمـنُ خُـروجَ الأولِّ أوّلاً. وأثنـاءَ خُـروجِ الثّعبـانِ قَـامَ الكَائـنُ الثـاني مُغتاظًـا بِعـضِّ ذَلـكَ الثّعبـان، فَعضَّـه الثّعبـانُ في رقبتـه، وامتـزجَ دمّهـما وجـرَى في الثعبـانِ، فصـارَ سـامًّا للأبـد، هـو وذريتـه، ليعـود للعـالم حاملاً الأذى، بينـما حَصَـلَ الكائـنُ الثـاني عـلَى مَنَاعـةٍ أَبديّـة مِـنَ السّـموم، وتضاعـف شـعوره بالاضطهـاد والحنـق.

وجَاءَ اليومُ المَوْعُود، يَوْم الخُرُوج.. يَوْم الدُخُولِ للكون.

وحبَسَ الحارس أنفاسه.

ولم تجـرِ الأمـور بيـسر. مخـاض وارتجـاج في الشـجرة، وتحـركات محمومـة لأغصانهـا. انْقـضَّ الكَائـنُ الثَـاني عَـلَى الأولِّ انقِضَاضـةً عَنِيفـةً مَنَعَتـه مِـنَ الخُـروج، وكَادَ أنْ يَخـرجَ هُـو، قَبْـل أنْ ينقـضَّ عليْـه في المُقابـلِ الكَائـنُ الأولّ ويزيحـه. واسـتَمرَّ العِـراكُ عَـلَى تلـك الحَـال، مـا أدّى إلَى تَحريـكِ رِيـاحٍ عَاتِيـةٍ في الأرْض، اصْطَـدَمَ بَعْضُهـا بِصخـورٍ صَلْـدَة دَفَعَهـا للاصْطِـدامِ بسـيقَانِ أشْـجارٍ جَافّـة، فتَولّـدَت شرَارة تَكفّلَـت بَاقِـي الرّيَـاح بإشْـعالِها نـارًا لأولِ مـرَّة في عُمْـر الكـوْن. اشْـتَعلت النّـيرانُ في اللحظـةِ التـي كانَـت عـيْن الكائـنِ الثَـاني وسْـط عِراكِـه مـع أخِيـه مُطّلعـة عـلَى المشْـهد، فأثـارَ شـهَواتَه وجُنونَـه مـرْأى النـيرانِ العَظيمـة التـي تأجَّجَـت، وتولّـدت بداخِلِـه

طاقـةٌ مَهولـةٌ أَعطتْـه القُـدرة عـلى دفْـع أخيـه بعنْـف والخُـرُوج أولاً، بعكـس المخطـط، والوُقـوف لِمُشـاهدَة العالَـم والنِـيران التـي خَلَبـت لُبَّـه وهَـامَ بِهـا عِشْـقًا، فَحَملتْـه الرّيَـاحُ العَاتِيـة إلَى قلْـبِ تِلـك النّـيران، فـكَانَ أوّل مَـا فَعَلَـه في الكـوْن أنْ أمْسـكَ بعْـضَ تِلـكَ النـيران وانْطلـقَ بهـا يوزّعُهـا هُنـا وهُنـاك. كل هـذا كان يحـدث وحـارس الزمـن يكتـب في سِـجله بسرعـات غـير مسـبوقة، وبحسـابات وكلـمات لم يعـرف مثيلهـا قـط مـن قبـل.. كَـمًّا أو كيفًـا.

ثُـمّ خـرَجَ لاحقًـا الكَائـنُ الأوّل، ووَقَـفَ يُشـاهدُ النّـيران التـي تَتَحـرّكُ بعَشـوائيّة، ولم يَرتَـح لِمَظْهرِهـا، وبفطرتـه أدرك أن عليـه إخمادَهـا، فَحَملتـه الرّيـاحُ إلى سُـحبٍ كَثيفـةٍ أسـقطت أمطـارًا عـلى النـيرانِ لتُطفئهـا، وانطلـق في سـباقٍ محمـومٍ وراءَ كلّ قِطعـةِ نـيرانٍ يشـعلُها أخـوه المنطلـق عبثًـا، عازمًـا أن يمحـو آثـاره، ويقوّضـه ليمنعـه مـن إفسـاد هـذا العـالم الـذي يبـدو أنـه كان جميـلاً.

ووُلد الصراع الأبدي بينهما.

-٣-

بعد أن قال الشاب مقدمته النارية المضطربة لبثِّه المباشر، وبعد أن قرر أنه سيحكي قصته من نقطة البداية، لاذ بصمت طال لدقائق دون أن ينظر إلى الكاميرا، بدا شاردًا كأنما يسترجع شريط حياته وهو يلف بإصبعه جزءًا من لحيته، قبل أن يشدها ثم يتمتم ببعض الكلمات غير المسموعة، ثم أشعل سيجارة ونظر طويلاً عبر النافذة للسماء، إلى أن نظر مجددًا إلى الكاميرا وعاد أخيرًا للحديث:

- حسنًا.. سأحكي كل شيء منذ البداية.

لا أعلم السبب تحديدًا، ذلك الذي جعل حلم حياتي أن أكون معماريًا، لم يكن الأمر قط مثل الأطفال الذين يتمنون أن يكونوا ضُبَّاطًا أو طيارين أو أطباء أو مهندسين، قط. كان نداءً قويًا لا يمكن إغفاله. لا أتذكر أيضًا هل وُلِد هذا الحلم قبل أم بعد لقائي بابن عم أمي في إحدى المناسبات العائلية، وأراد تسليتي وإبهاري بصفتي طفلاً آنذاك، فركَّب مجموعة من المكعبات في كتلة مكعبة، قائلًا إنه يبني بناية، لم يكن هذا هو المبهر، بل حينما اكتمل المبنى، ثم اتسعت عيناه عن آخرهما جزعًا مفتعلاً، وصاح:

- الناس هتتخنق.. مفيش شبابيك.. لازم ننقذهم بسرعة.

أصابتني الربكة والقلق على السكان الحبيسة بالداخل، وناولني البناية المصغرة بغتة في يدي صارخًا:

- اتصرف.. الحقهم.

تصبب عرقي وازداد هلعي ولم أدرِ ماذا أفعل، فرددت له البناية بسرعة صارخًا بالمقابل:

- اتصرف إنت؛ إنت الكبير.

فأمسكها وقام بعمل حركة واحدة سريعة، أسفرت عن فتحات وتجاويف مربعة بين المكعبات، قامت بدور النوافذ، وأتبعها بتنهيدة ارتياح حارة بعد أن تم الإنقاذ.

- رجاءً يا أمي سليه كيف فعلها هذا الوغد!

ومن حينها وأنا أراقب باهتمام أثناء خروجي مع والدي أي عملية بناء، لأتأكد أنهم لن ينسوا النوافذ، أمرّ جوار الأطفال على الشاطئ وهم يبنون القلاع الرملية، ولا أستطيع أن أغادرهم قبل أن أحفر النوافذ بيدي، مهما صرخوا في وجهي غاضبين، حتى في حصص الرسم كنت أرسم النوافذ أولاً ثم أحيطها بالبناية لاحقًا.

استمر هذا الهوس وتضاعف عندما شاهدت فيلمًا عربيًا لا أذكر منه أي شيء، إلا أن محور الأحداث كان عن بروش على شكل طاووس، وامرأة موتورة، وفنارة ما. في نهايات هذا الفيلم كانت البطلة الشريرة تتراجع للخلف في خوف من شيء ما، فاصطدمت بالنافذة وسقطت بفستانها الأبيض الذي امتلأ بالدماء بعد أن تهشمت.

أيقنت أن النوافذ تحيي وتميت، تنقذ من الاختناق، ويقع منها الناس ليتحطمون، وأنه لا بد من الإلمام بكل ما يخصها من أسرار.

وعندما كان أطفال العائلة والأصدقاء يتصارعون على ألعاب الفك والتركيب، لم أكن أُعِرهم أي اهتمام، لم تكن تلك الأشياء بالشيء المسلي لي، لكن كلمني عن بناء الأكواخ من المقشات والمماسح، وعن بناء الخيم من ملاءات الفراش، وعن بناء سلم من وسادات وجرائد قديمة وصناديق، ليصل بنا إلى أعلى هذه الخزانة الشاهقة.

كبرت قليلاً، واحترقت سينما الحرية، ومات الكثيرون اختناقًا بالفعل.

كبرت قليلاً، وشاهدت أناسًا يقفزون هروبًا من الحريق، من نوافذ مركز التجارة العالمي في نيويورك للنجاة بحيواتهم، وليس لإنهائها.

ناهيك بالصراع الذي دار حينها بين ما يمَّثل نقابة المهندسين في أمريكا من ناحية، يدافع بضراوة عن تصميم المبنيين، كونهما صُدِما بطائرتين لكنهما صمدا لأكثر من ساعة ونصف الساعة، مما أنقذ حياة آلاف البشر، ومن ناحية أخرى هيئة سلامة المباني، التي وصفت تصميم البرجين بالفاشل، كونهما سقطا من الأساس، وتسببا في وفاة أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة إنسان، مهما كانت الظروف.

شعرت أنني من المؤتَمَنين على هذا السر، سر النوافذ والمباني الآمنة. تأكدت أن الموضوع كبير ويستحق الدراسة، وقررت أنني سأعرف بالتفصيل عندما أكبر، وأضمن السلامة للبشر كافة حينها.

بقيت على تلك الحال، وأنا وحلمي نكبر معًا. تطورنا مع الزمن، وتطورت نظرتي للعمارة قدر الممكن وسط المتاح،

ولكني لم أنخرط في التفاصيل بإمعان، كي لا أحرق المفاجآت التي سأطرحها للعالم عندما أنزل الملعب فعليًا.

ثم دخلت الجامعة.. كلية الهندسة، في إحدى أكبر الجامعات في مصر، ولديَّ هنا لك خبران، أحدهما رائع والآخر بشع. الخبر الجيد أن القطاع الحكومي ممثلاً في الجامعات ما زال يحتفظ بالسمعة والكعب العالي على الجامعات الخاصة، على الأقل حتى الآن، حتى وإن كانت مباني الجامعات الخاصة جديدة ومعاملها أكثر تطورًا، وتعاقدوا مع الأساتذة ومعيدي الجامعات الحكومية أنفسهم، ما تزال الأفضلية والتقدير لتلك يفوق هذه. الخبر السيء أن أكبر جامعة مصرية لم تضمها قائمة خمسمائة جامعة الأولى في العالم، وأرجوك تأمل رقم خمسمائة جيدًا وافحصه.. خمسمائة.

هل تعرف المائة؟ خمسة منها! المائة هي تلك التي تنتج من مضاعفة خمسين. الخمسين التي هي من واحد إلى عشرة خمس مرات، أتعرفها؟ ضاعفها، ثم كرر هذا خمس مرات!

الغريب فعلاً، أنه على الرغم من ذلك فإن لدينا -كما اكتشفت لاحقًا- عقولاً -فعلاً- جبارة، وكوادر في الداخل والخارج تشعرك من فرط عبقريتها أنها من واضعي العلوم ومطوريها. لغز لا تفسير له إلا أن جامعتنا تحتل مركز خمسمائة وواحد، بينما الخمسمائة الأوائل متقاربو المستوى الرفيع، حقًا وصدقًا.

لكن.. خمسمائة؟!

عمومًا التحقت بالجامعة. إعدادي هندسة. ولم أجرؤ على دخول مبنى قسم العمارة إطلاقًا، ولو من باب الفضول، كنت أتحاشى النظر إليه أو المرور بقربه، كانت هيبته كاسحة. كان

قلبي يخفق بعنف كلما نظرت إليه يقف شامخًا لا ينوي الانهيار لقرون قادمة، ويقيني أن هناك بالداخل تتم التجهيزات استعدادًا لمجيئي العام القادم، ليناولني الجميع السر الذي سأضعه رهن خدمة الناس.

أنا قادم أيها العالم.. ليس كالزمالك، أنا قادم فعلاً، انتظرني فقط قليلاً وسأجعلك أفضل.

قضيت عامًا في إعدادي هندسة تلك، أدرس فيزياء وكيمياء ورياضيات وإنتاج وميكانيكا ورسم هندسي للماكينات والصواميل، وهندسة وصفية التي لا دور لها إلا زيادة قدرة العقل على تخيل الفراغ والأشكال المُركَّبة.

وجاء في أواخر العام تنويه، على طلاب إعدادي التوجه لشؤون الطلبة لملء استمارة رغبات الأقسام للعام المقبل.. أخيرًا! ضحكت من قلبي كمحكوم عليه بالإعدام جاءه خبر الإمساك بالقاتل الفعلي وهم يفكون حبل المشنقة من حول رقبته. ذهبت لمكاتب شؤون الطلبة البُنيَّة في الغرف الرمادية، وسحبت استمارة وكتبت الرغبة الأولى «عمارة»، ولم أملأ باقي الرغبات. فقالت الموظفة برتابة:

- مينفعش.. كمل باقي الرغبات.

- لكني لن ألتحق بقسم آخر.

ردت بنفس الرتابة: لو مملتهمش هيبقى طلب لاغي وهيدخلوك أي قسم بمزاجهم.

بقشعريرة ملأت باقي الرغبات: مدني؛ كونها تمس نفس موضوع المباني بشكل ما، ثم، حادي بادي كرنب زبادي شالوا

وحطـوا كلـه عـلى دي.. كهربـاء.. ثـم ميكانيـكا.

انتهـى العـام الـدراسي بعـد عبـور امتحانـات في مسـتوى عـالم ناسـا حـاد الـذكاء. مـر شـهران وأُعلنـت النتيجـة: متخلـف.

متخلف في عينكم يا متخلفين!

مقبـول في جميـع المـواد، عـدا امتيازيـن في الرسـم الهنـدسي والهندسـة الوصفيـة، وراسـب في فيزيـاء ورياضـة سـترافقانني في العـام المقبـل.

لا يهـم. أسـابيع ونصبـح معًـا أنـا وحلمـي هنـاك في داخـل المبنـى العظيم.

إلى أن جاءني الخبر الفاجعة.

قذفنـي التنسـيق طبقًـا لتقديـري المتخلـف، إلى رغبتـي (التـي هـي ليسـت رغبتـي) الرابعـة.. ميكانيـكا.

-٤-

توقف الشاب عن السرد وأخذ يردد كلمات غاضبة غير مسموعة، وهو يخبط بيده على مقود السيارة. أشعل سيجارة جديدة والتفت للكاميرا واستمر:

لعنت حظي أنني أحببت قسمًا عليه إقبال شديد، ولكن كيف كان لي أن أعرف؟! أقسم بثقة ويقين أنني رغبت هذا الشيء لذاته، لا كقطيعه السائر إليه. ليتني عشقت أعمال دهانات الأثاث، أو جمع الصناديق والأوراق وبيعها لمصانع إعادة التدوير، أو التجارة في الأدوات المنزلية، أو أي شيء أسهل في تحقيقه، وأسهل في تصديق أنني فعلاً أريده. كانت أغلبية رغبات أصدقائي مُسلسلة في الرغبتين الأوليين بين عمارة وكهرباء، ذواتا التقدير الأعلى. أي منطق هذا الذي يجعل راغب هذه يترشح لتلك كرغبة ثانية؟! ما أفهمه هو كهرباء وميكانيكا من نفس العائلة بشكل ما، نمر وأسد. بينما عمارة ومدني من عائلة أخرى، حوت وقرش. فكانت رغبات معظم الطلبة، نمر، قرش، أسد، حوت، فخفخينا.

رجعت بيتي سيرًا على الأقدام، خمسة عشر كيلومترًا، اشتريت أول علبة سجائر في حياتي، ومن يومها لم تفارقني تلك العادة كما هو واضح، سرتُ سيرَ الهائمين الضائعين الشاردين، أنظر إلى النوافذ في المباني وأقنع نفسي أنها ليست بهذا السوء، والمباني على ما يرام، لن يتوقف العالم عن الدوران من أجلي. لكني لم أستطع إقناع نفسي أن الماكينات تناديني. من أنتِ أصلاً؟

رأيت السيارات في الشارع توقفت وقد بدأت في تحول مشابه للترانسفورمرز، حيث ينقلب هيكل كل سيارة على محوره وهو يتضخم وتبرز منه بحركات ميكانيكية أذرع وجذع وساقان، قبل أن تركع أمامي فاردة ذراعها كأنني سأعطيها حقنة وهي تطلب تشحيمًا، فلا أنظر إليها وواصلت طريقي، لتتصارع أمامي -في محاولة لإبهاري- ماكينتان عملاقتان على طريقة السومو، فيصدر عنهما صوت صرير مزعج للغاية، واستمريّت في السير.

شكمانات وعوادم وصرير مزعج وصامولة ناقصة.

خمسة عشر كيلومترًا وسجائر كثيرة لم تفلح في مساعدتي على ابتلاع الخبر. أنت تذكر ذلك اليوم يا أبي. عرضت عليَّ أن نذهب للصيد في النيل معًا لتفريج هَم ضياع الحلم، فدخلت الحمام لأستحم وخرجت منه على الفراش، ونمت لثماني عشرة ساعة متصلة، صحوت منها جائعًا كالفيل، تنتصر غرائز البقاء الأساسية على رومانسيات الطموح والمشاعر في النهاية، أكلت بنهم وبدأ والداي في مناقشة الأمر معي:

- ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. احمد ربنا.

- عصام جارنا كان نفسه في هندسة ومطالهاش أساسًا.. احمد ربنا.

- عبد العظيم صاحبي مدير كبير في شركة بترول هيشغلك أول ما تتخرج.. إن شاء الله.

- ده ميكانيكا دي قسم العباقرة.. احمد ربنا.

قضيت أيامًا محاولاً ارتداء جلبابي الميكانيكي الجديد، أقوّس ظهري وأثني ذراعيّ عن آخرهما بحثًا عن فتحة الذراع،

فتنحشر رأسي في الياقة. شعرت بالغربة عن كل شيء، قبل حتى أن أدخل القسم أو يبدأ العام الدراسي الجديد فعليًا، عانيت الأرق في ليالٍ كثيرة، ثم فكرت في أن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وأن عصام جارنا كان يحلم بهندسة والتحق بكلية الحقوق، وأن عبد العظيم صديق والدي مدير كبير في شركة بترول، وأن ميكانيكا قسم العباقرة، فقررت (وكأنني قررت) أن أستمر.. أمر الله غالب.

في العام الدراسي الجديد تجنبت المرور أمام مبنى عمارة قدر الإمكان، وإذا اضطررت فأتحاشى النظر إليه لتجنب غصة الحلق، وانغمست بالكامل في قسم ميكانيكا بماكيناته ووِرَشه وخواص مواده ورياضياته وتشغيله وتشكيله وسجائري. قرنان مَرّا، وإن أشار التقويم إلى أنهما ثلاثة أسابيع فقط، وأنا أتفادى الألغام وأتسلق الهضاب وأدفع الصخور العملاقة، إلى أن تأكدت تمامًا، بكل ثقة، مينفعش.

القسم ومادته العلمية ومستقبله فعلاً واعدين، ومليئين بالتحديات، لكني فعلاً وبحياد لا أنتمي إلى كل هذا، ولن أفعل أي شيء مهما حاولت.

ذهبت من جديد إلى مكاتبهم البنية في غرفهم الرمادية، موظفو شؤون الطلبة، وطلبت مقابلة مديرتهم مدام إكرام:

- صباح الخير.

- ...

- حضرتك أنا تقديري في إعدادي وداني على أولى ميكانيكا وأنا عايز عمارة.

فأجابتني وهي تُخرِج كيسًا ورقيًا ملفوفًا من حقيبتها وتضعه على مكتبها:

- فيه طلبة كتير كده.. عادي مش لوحدك.

- لا ما هو حضرتك أنا فعلاً مش هينفع أكمل فيه، وعايز أحوّل عمارة.

فأجابت من جديد وهي تفتح درج مكتبها لتُخرِج رغيفين عيش بلدي، لتضعهما جوار القرطاس الورقي ذي البقع الزيتية:

- عادي.. اسقط وحوِّل السنة الجاية.

وكأنما وُلِدت من جديد. كلماتها المختصرة أيقظت كل خلاياي الموشكة على الموت وتقافزت جميعها من الإثارة. فسألتها وقلبي يكاد يثب إلى حلقي:

- يعني أنا أسقط السنة دي وأدخل القسم اللي عايزه السنة الجاية؟

فنظرت إليّ نظرة نارية تحمل تساؤلاً عما كنت سمعتها من أساسه، مع عدم وجود أي نية لإعادة ترديد خبر حياتي السعيد، فاستطردتُ بلهفة:

- يعني حضرتك أنا كده في أجازة من هنا للسنة الجاية؟

كانت الأفكار والخطط تتسابق داخلي مسعورة، وآمنت بالضارة النافعة، حيث إن استغلال هذه المدة في تدريب فعلي في أحد المكاتب المعمارية سيكون له عظيم الأثر قبل بدء الدراسة الفعلية. فأجابتني مدام إكرام وهي تضع قرصين من الطعمية في نصف رغيف وتفتتهما:

- لا يا حبيبي أنا قلت تسقط.. مش تغيب.

- مش فاهم يا فندم.. إيه الفرق يعني؟

فأجابتني بفم مليء بالطعمية والباذنجان المخلل:

- تسقط.. يعني تسقط.. يعني تثبت لنا إنك حاولت وفشلت في القسم اللي ودياك عليه، إنما لو اعتذرت أو غبت مش هينفع.

لم يطفئ حماسي هذا التوضيح، فتساءلت للتأكيد ثانية:

- يعني أسقط السنة دي وأروح عمارة السنة الجاية؟

كانت أصابعها مترددة بين اللفتة والجزرة وسط المخلل، ثم تركتهما والتقطت باذنجانة أخرى، وقالت لي وهي تقسمها طوليًا إلى نصفين:

- ضاد جيم (ضعيف جدًا).. مش غين (غائب). واضح؟

- واضح ونص.

خرجتُ منطلقًا بخفة ريشة. تلوّن العالم من جديد. رأيت الطيور تشير لي بإبهامها لأعلى علامة «لايك». لم ينقصني إلا أن أتقافز كثيرًا وأنا أصرخ من الفرحة:

- هسقط.. هسقط.. هسقط!

لملمت انفعالاتي وقررت ألا أصارح أهلي بمخططي الطموح في الرسوب، وأن أدرس لوائح الكلية الخاصة بكيفية دخول الامتحانات، حيث إنها كلية عملية، يلزم لك رصيد معين من أعمال السنة لتجنب الحرمان من الامتحان، وإثبات الفشل في القسم الذي اختاروه، هم لا أنا. ثلاثة سكاشن فقط لا غير

في كل فصل دراسي لكل مادة يمكن التغيب عنها. تغيَّب عن الرابع وقل وداعًا لحضور الامتحان، بالإضافة إلى مشاريع وأبحاث بعضها جماعي وبعضها فردي في بعض المواد، عدم تقديمها يضمن نفس النتيجة. لا بأس، فلتحضر جثتي هذه السكاشن المطلوبة.

لكن الأمور لم تكن بتلك السهولة، ففي أول سكشن أضع جسدي بداخله بدأ المعيد كلامه بسؤال عن الشيتات، وهي لمن لا يعلم الكلمة الرصينة المرادفة للواجب المنزلي، كنت الوحيد الذي لا يعلم شيئًا عنها بالطبع، فطردني المعيد، ليصبح هذا ثالث غياب لي في تلك المادة بعد أن تغيبت مرتين سابقتين بالفعل. لو دهسني قطار لاحقًا سأضطر أن أجمع أشلائي وأذهب بها لحضور كل المتبقي من سكاشن تلك المادة.

- لا يا حبيبي تسقط.. مش تغيب.

فوجئت بالهول الأعظم، حضور السكاشن كلها يجب أن يكون مدعومًا بالشيتات محلولة، ولن أستطع كتابة طريقة عمل المربى أو أي طلاسم تبدو علمية، تجنُّبًا لاستفزاز المسؤولين عن المواد. طلبت من بعض الزملاء (يفترض أن يكونوا كذلك) أن أنقل منهم حلولهم مع ضمان بإضافة تشويهات كثيرة، لكن معظمهم رفض بوضوح، ظنًا منهم أنني سأسرق مجهودهم وأصبح معيدًا بدلاً منهم. قسمًا عظمًا أنا فقط أحاول الرسوب! لكن هيهات. حتى من كان منهم يوافق على مضض في مرة، يتهرب في التي تليها. وحين اقتربت مواعيد المشاريع والأبحاث الجماعية كنت كالمتسول الشريد أبحث عن مجموعة تقبل بي، عارضًا خدماتي الجليلة المتعلقة بالكتابة على الكمبيوتر وتصميم الأغلفة. أما المشاريع والأبحاث الفردية فكنت أبذل

مجهـودًا لائقًـا كي تخـرج المصلحـة مهترئـة فقـط، لكـن مقبولـة وذات محتـوى يبـدو لائقًـا، طمعًـا في الصفـر وليـس رفـض المـشروع.

صرت منبـوذًا منعوتًـا بالضيـاع وتجنبنـي الجميـع كالأجـرب، لكـن إصراري كان عاليًـا عـلى تحقيـق هـدفي بالفشـل، رغـم كل المعوقات.

أيـام مـرت كالسـنين في جهـدٍ مضـنٍ، إلى أن جاء موعـد الامتحانات، التـي لم يكـن بمقـدوري مغـادرة إياهـا قبـل مـرور منتصـف الوقـت. جملـة مـدام إكـرام لم تفارقنـي لحظـة طـوال العـام الـدراسي، في ضرورة إثبـات عجـزي وليـس اسـتهتاري؛ انهمكـت في مـلء ورقـة الإجابـة بمـا يوحـي للدكتـور بأننـي مجـرد غبـي آخـر.

شهران وظهرت النتيجة المفجعة.

لا، لم أنجـح بالطبـع، فقـط نجحـت في أصعـب مادتـين، ولا أعلـم كيـف حتـى الآن، ولا أريـد أن أعلـم. لكـن الكارثـة الحقيقيـة كانـت في رسـوبي في المادتـين المسـتمرتين مـن إعـدادي هندسـة، فيزيـاء ورياضيـات، سـأظل متخلفًـا وسـترافقني هاتـان المادتـان كجِنّيتـين تعشـقانني.

-٥-

كان حملاً ثقيلاً؛ بعد كل تلك الأهوال (حسبما ظننت أن هذه هي الأهوال) وبعد كل هذا الوقت الضائع، الذي ظننت أن لن يضيع غيره، بعد كل هذا وكل محاولاتي الناجحة في الرسوب، فقط.. كي أصل.. إلى أولى عمارة.. أولى.. كل هذا كي أبدأ فحسب!

قضيت إجازة تحضيرية أتخلص فيها من شحوم ميكانيكا وأتربة المجهود بطريقة فعالة للغاية، صارت السيجارة كإصبعي الحادي عشر، وانخرطتُ في تجريب جميع أنواع المخدرات كي أنسى، تقريبًا لم أعد أتناول أي طعام، فقط ما يبقيني حيًا لأقارن بين أنواع أكثر وأكثر من المخدرات، وبعدما أفقت من غيبوبة جرعة زائدة في المستشفى، قررت أن أتوقف عن المخدرات نهائيًا، ثم عدَّلت القرار ليصبح تعاطي بكميات معقولة.

أسبوعان ويبدأ العام الدراسي الجديد، الحلم القديم على أي حال، رغم كل شيء صرت أنتظر وأترقب بلهفة متزايدة، بلغت أقصاها في يوم الإجازة الأخير.

مشاعر صارخة مختلطة ومتناقضة انتابتني في أول يوم في العام الدراسي الجديد، كنت ذاهبًا لمبنى عمارة نفسه لأول مرة في حياتي، شرعي رسمي نظمي فهمي، كالبطريق العائد للقطب الشمالي في الشتاء، بعد سنوات قضاها في أم درمان. بالمناسبة توجد عشيرة من البطاريق في شرم الشيخ تحت الشمس الحارقة، وظيفتها أن تقف في وداع الأطفال وهم يشيرون لهم

«باي باي» ويلتقطون الصور، أثناء مغادرتهم لعرض الدلافين.. تمهيدًا لمرورهم أثناء الخروج في محل لعب وهدايا تذكارية يمسك الأطفال فيه البطاريق اللعبة، بينما تقفز البطاريق الحية في المياه بسرعة هروبًا من تلك الشمس. أمانة على من يهتم أن يبلغ قوات الأمن أو جمعيات الرفق بالحيوان أو الأمم المتحدة.. كي لا يفعلوا شيئًا.

كنت أسير متجهًا للقطب المعماري، وتملكني شعور أنني أسير بطريقة البطريق المليئة بالغبطة والعفوية، والتسلخات أيضًا. ولكن بشكل كبير لم تفارقني تلك الصورة الكاريكاتيرية لاثنين ملاكمين يرفع الحَكَم فيها يد أحدهما مُعلنًا فوزه بعد المباراة، رغم أن وجهه يخلو من ملليمتر سليم. كنت حانقًا على كل ما ضاع من وقت وجهد في الهواء، وحماسي الذي تبدد جزء كبير منه. كانت المسطرة بسنتيميراتها المائة والعشرين في يدي تارة أشعر أنها رمح وأنني بجلد نمر وقلادة ممتلئة بالأنياب، آخذة خطواتي في التسارع وأنا أتقافز واضعًا عينيّ نصب مبنى عمارة المهيب، وتارة أشعر أنها نبّوت سأرقص به تحية لابن عمي في فرحه، فأطوحها حول محورها أثناء سيري المتثاقل.

كانت محاضرة مادة التصميم المعماري، أم المواد.. أم العلوم.. الحلم.. موعدها يوم الأربعاء. قضيت أيامًا قليلة في محاضرات تخص باقي المواد، كانت أبرزها بالنسبة لي مادة «الإنسانيات في العمارة». كانت تتناول البُعد النفسي للجمهور الذي يستخدم أي مبنى، وكيفية السيطرة من خلال التصميم على سلوكياتهم ومشاعرهم، كونها إحدى أهم وظائف المبنى، مع دراسة للعُقَد النفسية ذات الصلة، والألوان وتأثيراتها، والموروثات الثقافية والعادات والتقاليد. محاضرة احتوت ترحيب ومقدمة تعريفية

عـن المـادة التـي سـترافقنا طـوال السـنوات الأربـع، ولعبـت دورًا كبـيرًا في شـحذ الهمـة مـن جديـد، حتـى جـاء الأربعـاء المشـهود، محـاضرة التصميـم الأولى، ودخلـتُ قـدس الأقـداس بالتصويـر البطـيء، كان صـوت الآخريـن مجـرد صـدى خافـت مـن بعيـد، وعينـي تتنقـل بـين المشـاريع المُعلَّقـة عـلى الحوائـط، ونبضـات قلبـي البطيئـة أسـمعها بوضـوح في أذني، فدخـل دكتـور المادة وسـاد الصمـت. وضـع حاجياتـه عـلى المنضـدة قبـل أن يرفـع أصابعـه يـداري بهـا فمـه المفتـوح تثاؤبًـا، نظـر إلينـا سريعًـا ثـم التفـت إلى اللـوح الحائطـي ورسـم مكعبًـا كبـيرًا، وعـاد إلينـا ليبـدأ كلامـه:

- أهـلاً بيكـم كلكـم.. أنـا دكتـور «...». طبعًـا كلكـم دخلتـم القسـم عشـان المـادة دي.. كل واحـد منكـم عايـز يبقـى ديزايـنر ويعمـل أحسـن مبنـى في الدنيـا. الحقيقـة، في أي مجـال في الدنيـا بيبقـى فيـه نـاس موهوبـة فيـه، نـاس اتولـدت وهـي بتجـري في دمهـا جينـات الحاجـة دي، بـس نسـبة النوعيـة دي مـن البـشر بتكـون واحـد في المليـون بـدون مبالغـة، وبرضـو مـش بيكـون ده شرط إن الأخ أو الأخـت الموهوبـة تنجـح وتوصـل، الحسـبة ملعبكـة وأكـبر مـن كـده بكتـير، فـوق مـا تتخيلـوا، بـس هـل معنـى كـده إن باقـي النـاس تنـام في بيتهـا؟ أبـدًا واللـه، إنتـوا مبتضحكـوش ليـه؟! المجهـود والشـغل الـدؤوب بيعوَّضـوا نقـص الموهبـة. ميـسي موهـوب، ورونالـدو بيتـدرب عـشر سـاعات يوميًـا، والاتـين سـوبر سـتار. عايـز أقولكـم حاجـة مهمـة، المهنـدس المعـماري، الـلي هيتخـرج منكـم يعنـي، مبتضحكـوش ليـه؟ بيشـتغل شـغلانة مـن حـوالي تسـعتاشر أو عشريـن شـغلانة مختلفـين تمامًـا عـن بعـض، وكلهـم اسـمهم مهنـدس معـماري في الآخـر، وكلهـم بيجيبـوا فلـوس متقاربـة، مبتفرقـش كتـير. حطـوا الأمـور في حجمهـا الطبيعـي

وسيطروا على الطفل اللي جواكم. عمومًا نبتدي. التصميم.. شايفين المكعب اللي ورايا ده... إلخ.

ولم أسمع كلمة أخرى، كنت جالسًا كمن تلقَّى ضربة عظيمة بهراوة مسننة في الرأس ولم يمت أو يغشى عليه، فأصيب بالشلل الكلي، وتبدد ظني المتفائل أنني في جامعة ترتيبها خمسمائة وواحد على جامعات العالم، وأيقنت أنني غالبًا في جامعة ترتيبها خمسة آلاف وواحد.

قررت أن أبحث عن نفسي بنفسي، وأتمسك بما أريد.

في سكاشن التصميم حيث كانت اللقاءات أقل عددًا وأكثر تركيزًا، عرضت اسكتشاتي المبدئية لتصميم مكتبة أطفال على المسؤول عن السكشن، كانت بعض هذه اللقاءات جماعية مع الطلبة الآخرين لتبادل الاستفادة، وبعضها منفردًا، وكان اللقاء منفردًا تلك المرة. ما أن نظر الدكتور إلى محاولتي الأولى على الإطلاق، حتى قال بهدوء شديد:

- إيه ده يا ابني؟!

بدأت خلاياي كلها في التوتر، واحتبست الكلمات في حلقي، ولم أرد، فاستمر هو بنبرة مريحة:

- إنت عارف المرحلة اللي إنت فيها دي من التصميم اسمها إيه؟ اسمها كفتة process.. سمعت عنها قبل كده؟

تقافزت خلاياي بسرعة أكبر في كل اتجاه، وشعرت بسخونة تفوح من وجهي ولم أنطق بحرف، فقال مطمْئنًا إياي:

- أنا مستحيل أعمل شغلي من غير ما أدي مرحلة الكفتة دي حقها.. على قد ما تطوّل فيها على قد ما هتختلف عن

عمـوم النـاس، إنـت مكتـف نفسـك ليـه كأنـك بترسـم المـشروع في صورتـه النهائيـة؟ براحتـك خالـص.. ارسـم امسـح شـخبط قطّـع، طلـع العفاريـت الـلي جـواك وارميهـا عـلى اللوحـة، لـو مغيرتـش في الكـون، الكـون مـش هييجـي يتحايـل عليـك تغـيره.

ذهلت حقًا! واستمر هو:

- إنـت عـدو نفسـك، بخوفـك مـن تقديـر الدكاتـرة وزمايلـك لشـغلك. كام فكـرة عظيمـة مشـافتش النـور بسـبب صاحبهـا؟ عمرنـا مـا هنعـرف، لأنهـم حرمونـا وحرمـوا نفسـهم. ولعلمـك، كل الشـغل الـلي بعـد مرحلـة التفكـير والإبـداع دي بنسـميه donkey work.. تقليـدي.. تنفيـذي.. مفيهـوش خيـال، مجـرد بنقلـب الفكـرة لخطـوط ومنحنيـات تنفـع تبقـى مبنـى.. بنقيّفهـا يعنـي. أنـا مـش هناقشـك في الـلي إنـت راسـمه ده لأنـه واضـح جـدًا إن لسـه جـواك أكـتر وأحسـن، هشـوفك الأسـبوع الجـاي وعايـزك تفرجنـي عـلى سـيخ كفتـة محصلـش قبـل كـده.

وربـت عـلى كتفـي قبـل أن يعيـد يـده إلى جيبـه ويتجـه لزميـل يلينـي.

رباه!

كل هذا بسبب تلك الرسمة وهذا الدكتور العظيم!

يبـدو أن الأمـل مـا زال موجـودًا، وتراقـص أمامـي رقـم خمسـمائة وواحـد مـن جديـد، لملمـت حاجيـاتي وطـرت إلى مكتبـة الجامعـة لأول مـرة في حيـاتي لأقـرأ وأشـاهد.. أقـرأ وأشـاهد.. أقـرأ وأشـاهد. كـدت أن أذهـب إلى بيتـي هرولـة لأعيـد محاولتـي التصميميـة الأولى، انهمكـت وانغمسـت، نمـت قليـلاً جـدًا، ومزقـت لوحـات كثـيرة جـدًا.. محـاولات وراء محـاولات. اسـتندت عـلى الحائـط

مقلوبًـا، قدمـي لأعـلى ورأسي بالأسـفل لأجـري دمـاء إضافيـة إلى مخـي الـذي قـارب عـلى الاشـتعال. إلى أن وجدنـا بعضنـا، تصميمـي الأول.. وليـدي.. أنـت تعرفـه عندمـا تـراه، نعـم هـو ذا، وجدتـه ووجـدني، وذهبـت بـه في ميعـاد السكشـن، وفـردت اللوحـات، وانتظـرت مـرور الدكتـور، ولم يمـر.. لم يظهـر أبـدًا.. بـل مـر دكتـور آخـر وسـألني عـن هـذا الـذي أعرضـه، لكـن بطريقـة لا تبـدو مُبـشِّرة إطلاقًـا. لم أسـتطِع أن أقـول لـه عـن الكفتـة بـأي حـال وإلا حوّلنـي إلى حـواوشي؛ تلجَّمـت كالعـادة، وقبـل أن أنجـح في التفـوُّه بـأي حـرف، أخـرج الدكتـور قلـمًا أحمـر ذا سـن سـميك، وأخـذ في وضـع علامـة «خطـأ» عـلى أماكـن مشـكلات في علاقـات حركـة أو تلاقـي كتـل، ومـن دون كلـمات تركنـي واتَّجـه لمـن يلينـي، وعرفـت سـبب هيـاج الثـيران مـن اللـون الأحمـر، لأنـه حقًـا مسـتفز حتـى للمصابـين بعمـى الألـوان.

خمسة آلاف وواحد.

وتبـادل الدكتـور حديثًـا وديًّـا للغايـة مـع الطالـب الـذي يلينـي، وأخـذ يمـدح تصميمـه الـذي يحـوي بُعـدًا فلسـفيًا. مـن العيـوب القاتلـة في هـذا المـكان، وهـذا البلـد عمومًـا، هـو تأثـر تقييمـك بعلاقتـك الشـخصية بصاحـب القـرار. قتلنـي الفضـول للاطِّـلاع عـلى هـذا التصميـم، فاقتربـت مـن دون اسـتئذان مـن زميـلي قبـل أن يتركـه الدكتـور، لأجـد مبنـى على شـكل مسـتطيل مرسـوم في وسـطه مـا يشـبه جـزءًا مُتهدمًـا في السـقف، فلمحنـي الدكتـور وقـال أشـياء عـن المعـاني الفلسـفية الباطنـة داخـل المبـاني العظيمـة، وهـو موضـوع رائـع حقًـا لكـن لـه شروط كثـيرة، أهمهـا عـدم الابتـذال أو التسـطيح. عمومًـا كانـت فكـرة زميـلي أن هـذا التصـدع يعـبر عـن شرخ في ثقافـة الأجيـال الصاعـدة وابتعادهـا عـن القـراءة عمومًـا.

فقلت بصدق، إن هذا الشرخ سيسرِّب مياه أمطار بغزارة على رؤوس هذا الجيل، ولن يزوروا المكتبة ثانية. فنظرا إليّ شذرًا. فاستطردت وقد شعرت بالظلم:

- ولو هنقضيها مغزى ومعاني يبقى المفروض الشرخ ده ميتحطش وميضربش المبنى اللي بيحاربه في الصميم.. كده الشرخ الثقافي الغريب ده هيبقى كأننا بنخلِّده، ده غير إنه كَسَر بالفعل المبنى، يعني انتصر.

ورسبت في مادة التصميم المعماري، والفيزياء، والرياضيات كالعادة.

ثلاث مواد.

إعادة للسنة.

-٦-

نـزل عـليّ خـبر رسـوبي في أولى عـمارة التـي جاهـدت كي أبلغهـا، كجلمـود صخـر حطه السـيل فـوق رأسي. وقبـل أن يكتمل اسـتيعابي للخـبر سـألني صديقـي بهلـع إن كان هـذا يعنـي فصـلي مـن الكلية، كونهـا الرسـوب الثـاني في نفـس العـام. ذهبـت كالمجـذوب لمـدام إكـرام ولِفْتهـا وجَزَرهـا وباذنجانهـا. لم تتذكـرني بالطبـع، شرحـت لهـا الموقـف بكلـمات آليـة رتيبـة خاليـة مـن المشـاعر، فدعـت بالخراب عـلى سـنيني «يخـرب بيـت سـنينك»، ولم أتسـاءل عـن نوعيـة الخـراب المنشـود أكـثر مـن هـذا الـذي يحـدث، ثـم طمأنتنـي أن رسـوب عامـين في نفـس السـنة مـن نفـس القسـم هـو مـا يتبعـه الطـرد، وهنَّأتنـي ببقـائي دون فصـل لعـام آخـر.

صرت أنـا والمخـدرات صديقـين فوق العـادة، جربـت كل شيء وأي نـوع، إلى أن توافقنـا تمامًـا أنـا والكيميـاء، قامـت بالـدور المطلـوب بالضبـط. وكان مـن ضمـن أصدقـائي خبـير سـمَّيته البـروف. لا تتناول هـذا مـع تلـك، ممنـوع منعًـا باتًـا تجـاوز شريـط ترامـادول في المـرة الواحـدة. لأ نبعـد تمامًـا عـن الصراصـير (الباركينـول دواء الـصرع) دماغهـا وسـخة. الكودافـين الجديـد مفيهـوش كودايـين مـش هيعمـل دمـاغ. أبتريـل بكـرة.. بـروف حقًـا. كان وجـوده مُطمْئنًـا، والانصيـاع لتعليماتـه ضامـن حقيقـي لتجنـب الأوفـردوز (الجرعـة الزائـدة) أو التـورط في الإدمـان الفعـلي الـذي يعرضونـه في الأفـلام.

ولكـن سـنواتي السـت اللاحقـة حتـى التخـرج كانـت أكـثر إيلامًـا، كرهـت السـاعة والتقويـم الميـلادي والهجـري وكل الأرقـام التـي

تعدّ أي شيء، كان الزمن كهضبة راسخة بليدة تقف في وجهي لا تتحرك ولا تهتز. كل محاولاتي لإعادة الاندماج واستعادة الشغف بالعمارة كانت تقابَل بسموم، تبدو كأنها أُرسِلَت لي خصوصًا كي أصادق الفتور وعدم الاكتراث. انجذبت قليلاً نحو مادة تاريخ العمارة وتطور العمران حسب الحضارات المصاحبة: تقديس الفراعنة لفكرة البعث بعد الممات وأثر ذلك على معظم مبانيهم، قدس الأقداس وما يحمله من وظائف ومعان، وتأثير ذلك على مسقط المبنى المتناقص كلما أوغلنا بالدخول، مساجد المماليك ذات الأضرحة والمحال بأسفلها الغنية بتفاصيل تحمل وراءها قصصًا وأسبابًا، عمارة ما بعد الحرب العالمية الثانية وانعدام التشكيل والتفاصيل فيها، بسبب الدمار الشامل الكامل الذي حل بأوروبا، ما استوجب إعادة إعمار أولويته الأولى هي سرعة التسكين وليس التفنن في الجماليات. مواضيع كثيرة شيِّقة تؤكد مفهوم أن العمارة تكتب التاريخ وتمهد لكتابة المستقبل. لكن هيهات؛ في إحدى المحاضرات حدَّثنا الدكتور عن الديموقراطية عند اليونانيين القدماء، وأثر ذلك على العمارة، بأن صارت الأعمدة داخل المبنى، بينما تميز الرومان بالدكتاتورية، ما انعكس مباشرة على وضعية الأعمد في مبانيهم، والخروج بها خارج المبنى لتكون ظاهرة من الخارج. تلفّتُّ حولي لأجد جميع الزملاء الذين لا أعرف منهم اسمًا واحدًا بسبب تعدد رسوبي وتغير الوجوه، فلم أجد عليهم أي نية للسؤال عن تلك العلاقة الغريبة، أعمدة بالداخل عند هؤلاء بسبب أنهم ديموقراطيون، وأعمدة بالخارج عند هؤلاء كونهم دكتاتوريين! رفعت يدي.. سألت.. طُردْت.. رسبت! وإلى الآن لم أعرف سبب تلك العلاقة الآثمة بين مكان الأعمدة ومدى الديموقراطية.

لـن أحـكي عـن تلـك المـرة التـي مـررت فيهـا سـائرًا في شـارع عـدلي بوسـط البلـد، واسـتوقفني المعبـد اليهـودي، ليـس لتميُّـزه والغمـوض الـذي يحيـط بـه فقـط، بـل كونـه بصمـة مـن التاريـخ تتخلخـل الصـورة عندهـا وتَـرَى بالأبيـض والأسـود، يهـودًا مصريـين بأزيـاء تلـك الفـترة يرتـادون المـكان في صمـت ليتحدثـوا كثـيرًا بالداخـل. أخرجـت الكاميرا بعـد التأمـل وشرعـت في أخـذ اللقطات، قبـل أن تنقـض عـلى كتفـي قبضـة أمـين شرطـة مـن هـؤلاء المولعـين بتصديـق أن أي شـخص يصـور أي شيء فهـو ينـوي أسـوأ مخطـط. لـن أحـكي ذلـك الموقـف وتبعاتـه، لكنـي سـأحكي عـما دار بينـي وبـين أحـد الدكاتـرة في أحـد السكاشـن لمناقشـة تصميـم مبنـى تجـاري (مـول) جماعيًـا مـع الزمـلاء، الذيـن لا أعـرف أسـماءهم. بعـد أن ألقـى نظـرة سريعـة عـلى الرسـم، سـألني بلهجـة مليئـة بالاسـتفهام الحقيقـي:

- إيه ده يا ابني؟!

- مول!

- مانا عارف إنه مول.. أنا بسأل إيه ده؟!

- !

- ...

- مسقط أفقي حضرتك.

- مانا عارف إنه مسقط أفقي.. بس ليه كده؟

حقًـا لم أكـن أسـتطيع فهـم المقصـود مـن أي كلام يوجّـه إليّ مـن معظـم الدكاتـرة، ولا الكيفيـة الصحيحـة للـرد، فاخـترت الصمـت، ليسـتطرد هـو بجديـة:

- يا ابني الإنسان جواه قرد.

ضحك الزملاء الذين لا أعرف أسماءهم، وتوهج وجهي، فاستمر الدكتور:

- أنا بتكلم بجد يا جماعة. كل واحد فينا جواه قرد عايز يتنطط ويطلع وينزل ويتشعبط في الحبال كمان لو ينفع، إنت عامل التصميم كله flat من أوله لآخره، مفيش حاجة جذابة تشد اللي يدخل، مفيش ramp يوصلك لنص دور فيندهلك أول ما تدخل إنك لازم تروح تلعبه، ده مبنى تجاري ترفيهي، لازم يكون تجربة وخبرة للزوار، عالم تاني مستقل. أشوفك الأسبوع الجاي ومعاك تصور تاني يخدم فكرة المغامرة جوة المول.

يمكن بسهولة تخيل شكل التصميم الداخلي الذي قمت بتجهيزه، لكن لا يمكن توقع رد الدكتور لدى مشاهدته أمام الزملاء، الذين بالتأكيد لديهم أسماء لكني لا أعرفها:

- إيه ده يا ابني؟!

انتابتني نوبة هرش بسبب الترامادول والارتباك معًا.. فكرر سؤاله بسخرية:

- إيه ده؟!

استجمعت بعض الهواء للتحدث من خلاله، وشرحت التصميم الذي لا يحتاج وصفًا:

- حضرتك الزائر هيدخل من المدخل الرئيسي ده، هيلاقي نفسه في الـlobby الدائري الكبير ده.. اللي في مركزه دي زحليقة رأسية حلزونية، الناس اللي في الدور اللي فوق ممكن ينزلوا منها ويقعوا في بحر الكور البلاستيك ده، ومن اللوبي نفسه

بيبقى قدام الزائر كذا اختيار، يا إما السلم المعمول من جذوع الشجر ده عشان يطـ..

فقاطعني وسأل باستنكار:

- إيه لازمة الدرمغة دي كلها؟

قاومت الهرش حتى لا يتمزق جلدي، وعدلت من وضع ياقتي لأقوم بحكة سريعة خفية في رقبتي، ورددت:

- ما هو حضرتك الأسبوع اللي فات قلت إن الإنسان جواه قرد بـ..

فقاطعني بصرامة واستهجان حقيقيين وهو يقوم ليغادر:

- أنا قلت إن الإنسان أصله قرد؟

فقلت مصححًا بصوت مبحوح:

- جواه. جواه قرد.. مش أصله قرد.. حضـ..

- إيه كلام الكُفر ده؟! وداروين والقرود! أنا قلت كده؟! روح لرئيس المادة قوله الكلام ده وتعالالي مكتبي بعدها.

مشى خطوات وهضبة الزمن راسخة لا تتحرك، ثم التفت وسألني:

- القرد بيتنطط ولا بطل تنطيط؟

وانفجر هؤلاء الذين يمتلكون أسماء في الضحك.

-٧-

استرخى الشاب في مقعده وأخذ يصفر بخفوت مع كل زفير، ثم اعتدل وأخرج نظارة شمسية ولبسها دون داعٍ، هرش، خلع نظارته ثم مسحها بمنديل ولبسها من جديد، تجرع من قهوته، وأخذ يتمتم بسُباب وراء سُباب، وكالعادة أشعل سيجارة، ثم استمر:

لن يمكن أن أحكي كل شيء، كانت سنوات بطيئة مميتة مقيتة، وكفى.

التحقتُ بالكلية شخصًا وخرجتُ منها شخصًا آخر بعد دهور. ظللت أتابع وأقرأ عن العمارة، لكنها كانت أنشطة خارجية لا علاقة لها بالدراسة، احتفظَتْ لي تلك المطالعات الكثيفة بقليل من الشغف لم يتبدد، قامت بدور بنزين ٨٠ دفعني للاستمرار على أي حال، إلى أن أنهيت الكلية بالفعل بإجمالي تسع سنوات. قررت أن أحصل على هدنة لمدة عام كامل إضافي، فكاد أن يقتلني الملل بعد شهر وحيد.

بدأتُ المراسلات للبحث عن عمل، إلى أن تلقيت اتصالاً لتحديد ميعاد مقابلة عمل. وكأنني تلقيت مولودًا لا اتصالاً؛ عمَّت السعادة البيت، وصنعتْ أمي كعكة احتفال كأنني قد تم قبولي بالفعل في الوظيفة، وأعطاني أبي مبلغًا جيدًا كي أشتري به بدلة، وأنا شخصيًا تقريبًا نسيت الأهوال السابقة، متوعدًا الإنسانية بالخير كله بعد قبولي في الوظيفة.

بالبدلة واللاب توب والأحلام الكبرى ذهبت قبل موعدي بخمس دقائق، حسبما قرأتُ من ضمن معلومات ونصائح غزيرة تتعلق بهذه المواقف، فانتظرت ساعة كاملة، قضيتها في فحص المكان والموظفين، شركة متوسطة الحجم تصلح كفصل أول في كتاب حياتي يا عين، وها هي يتم ذكرها في فيديو نهاية حياتي هنا.

توقف الشاب عن السرد تمامًا، وقضى دقائق يعبث ببطء في لحيته، بدا كأنه تذكر أنه سينتحر بعد أن ينتهي من قصة حياته القصيرة، شروده أوحى أنه سيراجع نفسه، لكنه نفى ذلك تمامًا بأن استرسل:

كنت أتمنى أن يكون مزاجي في يومي الأخير في هذه الدنيا في حالة جيدة، بينما سرْد كل هذا يقوم بمفعول عكسي تمامًا، لكن هذا هو الإناء عمومًا، وهذه هي الطبخة، سأسرد ما أريد، وأتجاوز عما لا أريد، الكُرة كرتي والوقت وقتي والريموت في يد من لا يهتم.

بعد أن قضيت ساعة في مراقبة المكان والموظفين الذين يراقبونني بتحفُّز، بينما كيبورداتهم لا تتوقف عن التكتكة، قررت أنني مللت، وقبل أن أنهض قالت لي السكرتيرة بتناحة بأن أتفضل. استجمعتُ همَّتي من جديد ودلفت للمكتب الفخم الخاص بصاحب الشركة. استقبلني بترحاب ولم يعتذر عن عدم احترام الميعاد. جلسنا على المقاعد الوثيرة في ركن الغرفة بعيدًا عن رسميات جلسة المكتب نفسه، حسب وصفه. تدريجيًا تحول الترحيب لبرود فجفاء، قبل أن يتلقى اتصالاً على موبايله، لم يستأذن قبل تلقيه ولم يبذل مجهودًا لجعل المكالمة قصيرة ولم يعتذر بعد إنهائها، ثم سأل مباشرة

عـن علاقـة سـني الكبـيرة نسـبيًا بتخرُّجـي منـذ أسـابيع قليلـة، وهـو سـؤال متخلـف عقليًـا إجابتـه معروفـة، لكنـه أراد أن يمعـن في زلزلـة الأرض مـن تحتـي. بـدأ الضجـر يتملكنـي حقًـا، فاسـتمر هـو في التركيـز عـلى المقايضـة الرابحـة التـي سـينالها كلانـا، سـأعمل عنـده وأتعلـم وأكتسـب خـبرات، وأحصـل أنـا عـلى مرتـب متواضـع لحـين الارتقـاء الفعـلي في المسـتوى الفنـي. هـززت رأسي بالموافقـة، فسـألني عـن الراتـب المتوقـع، فطلبـت أن يحـدده هـو وننتهـي مـن هـذا الهـراء، فـأصرَّ أن أطلـب أنـا؛ طلبـتُ راتبًـا هزيـلاً تحقيقًـا لتلـك المقايضـة الفجَّـة، فاتسـعت عينـاه وكاد يسـعل في فنجـان الشـاي الـذي يشربـه بحركـة تمثيليـة درجـة ثالثـة، وقـال:

- بس؟! هو ده تقديرك لوقتك ومجهودك وفكرك؟!

تسـمَّرت، ثـم طلـب منـي أن أطلـب راتبًـا آخـر، فرفعـت أجـري إلى ضعـف مـا طلبتـه منـذ ثـوانٍ، وإن ظـل المبلـغ صغـيرًا، فاتسـعت عينـاه مجـددًا بتمثيـل أفشـل مـن المشـهد السـابق، وقـال:

- ليـه يـا فنـدم؟! هتجيبـلي قصادهـم كام؟! إنـت لسـه بتبـدأ الطريـق تقـوم شـاطح في العـالي كـده؟

فيـه إيـه يـا ابـن المجنونـة؟! مـا هـذا مستشـفى المجانـين؟! وقبـل أن أفكـر في كيفيـة الـرد قـال لي كلمـة ظاهرهـا لطـف وواقعهـا كارثي:

- شكرًا جزيلاً، شرفتنا.

وقـام عائـدًا إلى مكتبـه وأنـا متجمـد حرفيًـا في مـكاني، جلـس عـلى مقعـده واختلـس نظـرة لمـكاني ثـم انهمـك زورًا في كتابـة أشـياء عـلى الكمبيوتـر.

نهضت أجرجر قدمي ووزن اللابتوب أصبح أطنانًا. يدي على مقبض الباب، وقررت أن ألتفت إليه لأقول شيئًا، ففتحت الباب وخرجت. قررت أن أصفق الباب، فتركته. في طريق خروجي وبعد أن أصبحت أمام المنهمكين على الكيبورد، وجدت سلة مهملات معدنية ممتلئة بالأوراق الممزقة، ومن دون قرار ركلتها فطارت واصطدمت بالجدار وأفرغت محتوياتها. قام الموظفون تباعًا متحلين بشهامة من يدافع عن أرضه، تصاعدت الأحداث بسرعة البرق وبدأنا جميعًا اشتباكًا فعليًا لا أتذكر من تفاصيله إلا بعض شاشات الكمبيوتر التي طارت وتهشمت، وسط معجنة كثيفة من اللكمات المتبادلة والركل والسباب وصراخ السكرتيرة وبعض الموظفات. وكالأفلام انتهت بي المعركة محمولاً من أمن البناية لخارجها.

مزقتني نظرة والديَّ لدى رؤيتي ممزِّق البدلة مع بعض السحجات التي لا تُخطِئها عين. أثق تمامًا أن كل ما رغباه من تلك الوظيفة هو شهادة ميلاد جديدة لحياتي المُتبلِّدة المُحطَّمة، فرددت عليهما بمنظري العائد من معركة، لا من مقابلة عمل بريئة. فزادهم هذا أثقالاً. نمت يومًا كاملاً ثم زدت أحمال والديَّ بعدها بأن أخبرتهما بحسم أنني لن أكمل حياتي في هذا البلد، متجاهلاً حقيقة أنني وحيدهما الذي أرسله لهما الله بعد سنوات طوال. ملأ الرفض أعينهما وملأ التشجيع لسانهما. تم تدبير المبلغ المطلوب وتأشيرة دُبي في خلال أيام، وأوصلاني المطار مع كثير من الدعوات من أمي والنصائح من أبي. ودَّعتهما وأحرقتني دموعهما. اختفيت عن نظريهما، ودخلت التفتيش، وأمسك أمين الشرطة بعلبتي سجائر كانتا في حقيبة يدي، وقال مبتسمًا بلزوجة إنه أيضًا يدخن نفس

هـذا النـوع. انقـضّ عـليّ أمـن المطـار للسـيطرة عـليَّ للحـول بينـي وبينـه، بعـد أن انفجـرت فيـه وفي أسـلافه والبلـد بالسـباب واللعنات والدعـوات، وأنـا أمسـك بـه وأرجَّـه بشـدة. وبعـد أن ابتعـد تمامًـا، اسـتدرت موليًـا ظهـري لصالـة المغـادرة، مواجهًـا بلـدي.. وبصقـت عليـه.. بعنـف.

-٨-

وتستمر الأسطورة في السرد لنا، وتخبرنا أنه بعد ميلاد هذين الكائنين، وقبل أن يستكشف كلاهما عالمه الجديد فعليًا، قبل أن يخطو أحدهما خطوات، قبل أي شيء، كان من وُجد ثانيًا ووُلد أولاً شاهدًا على ميلاد النيران وراعيًا لنشرها، بينما توأمه من لحق به شعر بالتكليف منذ اللحظات الأولى؛ لاحقه ودرأ مفاسده.

اصطَدَمَتْ عيناه اللتان أصبحتا ناريتين، أثناء مُجونِه، بقطعةٍ عمْلاقةٍ منَ الأرضِ، هي الأجملُ والأروعُ أبدًا. ألقَى النيرانَ مِنْ يدِه، ووقفَ يتأمّلُها فاغرًا فاه. دخلَها منبهرًا، بخطواتٍ حَثيثة، وأخذَ يتجوّلُ فيها ويُشاهد. صارَ يتجوّل حابسًا أنفاسه، إلى أنْ وجدَ رجلين صديقين وامرأتين، على وشك الزواج، لكن أحدهما كان يريد امرأة الآخر لا امرأته هو، لمحها في عيني الرجل، فاقترب منه ووقف أمامه، ونظر في عينيه، قبل أن يلوي رأسه صوب صديقه وكأنما يسأله «ولمَ هو؟»، ويعيد نظره من جديد لعينيّ الرجل اللتين تأججتا نارًا، فنظر لامرأة الآخر ثم لامرأة الحانق ثم لعينيّ الرجل من جديد، الذي أخذت أنفاسه في التسارع وناصية رأسه في التصبب عرقًا. استمر في الضغط ونظر نحو حجر كبير على مقربة منهما، وأطال النظر، ثم عاد لعينيّ الرجل الغاضب، فوجده مُحدِّقًا بذات الحجر، ويكاد الشرر أن يتطاير منه، فانزاح عن طريقه ليسير الرجل نحو الحجر ببطء

وهـو ينظـر نحـو صديقـه خلسـة كل بضـع خطـوات.

بينـما كل هـذا يحـدث، كان حـارس الزمـن تـكاد أن تدمـى يديـه جـراء التدوينـات المحمومـة، ونوعيـة القبـح الـذي يختـبره ويكتبـه لأول مـرة. ثمـة دمـوع في عينـي وجهـه الممتقـع هلعًـا وأسى.

وصـلَ الأخ الأكـبر في عمـر التكويـن، الأصغـر في عمـر الميـلاد الفعـلي، وصـل في اللحظـة التـي أمسـك فيهـا الرجـلُ الحاقـد بالحَجرِ ورفعـه سـائرًا نحـو صديقـه المسـتكين الـذي لا يتوقـع غـدرًا، وذلـك مـن وَسـوَس كان يقـف بعيـدًا متواريًـا يراقـب. لم يـدرِ الأخ مـاذا سـيحدث، لكنـه شـعر بكتلـة مشـاعر سـلبية مـن غضـب وغـيرة وأنانيـة وشـعور بالاضطهـاد تفـوح مـن حامـل الحجـر، فاقـترب منـه وأخـذ ينصحـه بحميـة وإصرار أن يعـدل عـما ينـوي فعلـه.

هـذا متواريًـا يترقّـب، وهـذا بـإصرارٍ يَنصـح، والرجـلُ بغضـبٍ يقـترب، وصديقـه باطمئنـانٍ يجلـس، وحـارسُ الزّمـنِ يكتـب ويـدوّن وهـو يَجْـأَرُ غاضِبًـا مـنْ كلّ هـذا الـذي يحـدث.

ارتفعـت ذراعَـا الرَّجـلِ عاليًـا بالحجـرِ وصرخَ صرخـةً أزعجـت هـدوءَ العـالم والكائنـات، وهـو يهـوي بالحجـر عـلى رأس صديقـه ليهشّـمها، وتتناثـر دمـاء كثـيرة في كل اتجـاه، جـاء بعضهـا مبـاشرة عـلى شـفتي صاحـب النـيران، فلعقهـا وأصابتـه نشـوة جديـدة مـن طعـم الدمـاء والطاقـة العنيفـة التـي سرت بـه. تـصرخُ الامرأتـان صراخًـا ملتاعًـا طويـلاً حـادًا، ويشـاهد القاتـل آثـار فعلتـه وجمجمة صديقـه المهشـمة. وسـط كل هـذا الهلـع والـصراخ والـدم، يلتفـت الجميـع لصـوت الأهـوال التـي تسـقط مـن السـماء، ليجـدون حـارس الزمـن يهـوي مـن عـلٍ وهـو مشـتعل نـارًا والهـواء متخلخـلاً مـن حولـه كأنـه يسـقط في تجويـف هـوائي عـلى شـكل عمـود

ضخـم، وهـو يدفـع بأطرافـه بعنـف في كل اتجـاه، إلى أن تفتَّـتّ ذراتـه وتطايـرت لتختفـي وينتهـي وجـوده مـن المشـهد.. تتطايـر قطـع الأشـجار والأحجـار في كل مـكان مـع صـوت انفجـار زلـزل المـكان، و يضيـعُ سـلام الكـون للأبـد.

عُوقِـبَ حـارسُ الزّمـنِ بـأنْ ضـاع في الأبعـاد، وأصبـحَ حارسًـا للأزمنـة كلّهـا، وصـارَ عليـه أنْ يـترَكَ مشـاهدةَ الكـوْن، وأنْ يتفـرَّغَ لمُراقبـة جميـع الأزمنـة، ويتوقـف عـن تدويـن كل مـا هـو حسـن وجميـل، ويـدون فقـط كل أفعـال القبـح والـشر لـكل البـشر في كل الأزمنـة.

وعُوقِـبَ الأخَّـان، بـأنْ صَـارا في عَـالمٍ أكـثرَ دونيّـة، واختفـت ماديتهـما وصـارا فقـط طيفـين مرئيـين، هيئتهـما كـما هـي لكـن لا يفعلـون، فقـط يشـاهدون ويسـمعون ويهمسـون. وتَفَرّغَا لاسـتِمرارِ حَرْبِهـما معًـا، التـي وُلِـدَتْ بِمَوْلِدِهِـما.

-٩-

تذكرت وأنا في الطائرة جميع أغاني افتقاد الوطن، وأنا لا أكف عن ترديد «كذابين.. كذابين»، وأكاد أن أقف أركض في الممر بين المقاعد لتعجيل المغادرة والوصول لأرض تحقيق الأحلام التي سقفها السماء. قضيت الوقت في استرجاع شريط حياتي القصير، موقف موقف وشخص شخص وعثرة عثرة، إلى أن غلبني النوم لأحلم برجال كثيرين ضخامتهم مهولة ممسكين بمطارق عملاقة آخذين في رفعها إلى أعلى مدى قبل أن يهوي كلٌّ بمطرقته وهو يزأر. لم أرَ علامَ يهوون أو ماذا يُحطِّمون، لكن الأرض كانت ترتج بعنف مع كل خبطة، قبل أن يراني أحد هؤلاء العمالقة فيستدير نحوي بآلية ويستمر في ممارسة عمله ويرفع مطرقته عاليًا، وأنا كالقزم، ويبدأ في الصراخ، بيما احتبست صرختي أنا وهي تهوي نحوي قبل أن أستيقظ على تربيت من جاري في المقعد وأنا أتصبب عرقًا، ليهنئني ببرود على سلامة الوصول وهو يريد أن أفسح له مكانًا ليمر.

شغف وسعادة غمراني كوني في بلد آخر، بل قارة أخرى. خرجت من الطائرة كمن يخرج من الرحم ليبدأ كل شيء، فصفعتني حرارة الجو والرطوبة، وشعرت كأنني صينية بطاطس في فرن بلدي. سمعت كثيرًا عن مدى حرارة الطقس في الخليج، لكن ليس من سمع كمن رأى، أو استوى. واسيت نفسي بأنني في مهمة رسمية شبه انتحارية لإعادة اكتشاف الذات وإنقاذ البشرية.

بمجرد خروجي من المطار العالمي، بعد المرور بالإجراءات ووقوفي في الشارع ممسكًا بحقيبتي والطقس يقوم بشيّي، أدركت جزءًا كبيرًا من حقائق كثيرة. أهمها أننا لسنا محور الكون كما ظننت، أناس كثيرون من بلدان كثيرة يتحدثون باهتمام بلغاتهم عن أشياء أخرى. وأدركت أنني صغير ضئيل على المستوى الشخصي، غير مسلح بأي سلاح إلا الشغف والطاقة الكامنة النابعة من كثرة التعثر. أدركت أنني أطارد أحلامًا كوكب عطارد أقرب منها. وأدركت أنني لن أنجح فيما أتيت من أجله. وأدركت أني وحيد.. تمامًا.

انهار كل شيء قبل أن يبدأ.

ظللت مكاني وقتًا كبيرًا، أشاهد السيارات الكثيفة عددًا، التي تسير في نظام مبهر لا تحيد أيها عنه ولو سنتيمتر، وتراقبها ناطحات السحاب الشاهقة المتراصة، بينما البشر يتحركون جيئة وذهابًا في عجلة من الأمر وجِدية واضحة. كل هذا أخبرني أنني سقطت في ماكينة عملاقة تدور دون أن تلتفت للوراء، وأنني سأنسحق لو لم أجد مكانًا أشغله مثل ترس متناهي الصغر، وسط كل هذه المعدات الديناميكية.

وحدة وغربة ولغات كثيرة ولهجات أكثر، ومبلغ من المال ينقص ولا يزيد.

مقابلات شخصية كثيرة، معظم من أداروها تحلُّوا بنفس برود صاحب المقابلة الوحيدة التي أجريتها وانتهت بمعركة، وبعضهم بنفس درجة الصفاقة، وكلهم عمومًا رفضوا توظيفي، لتسودّ الدنيا أكثر وأكثر.

ألهتني تلك الدوامة المصيرية عن الانتباه لكارثية السكن

المشترك الذي قطنته، وعن آلام ألا تنام ليالي كاملة بسبب شخير هذا أو ذاك، وهو أمر خارج عن إرادتهم عمومًا، وعن الاحتمالية الضعيفة أن تجد الحمام شاغرًا عندما تريده، وعن كونه حمامًا مشتركًا بالأساس وما وراء ذلك من تفاصيل. انحصر تركيزي بأكمله في العداد التنازلي السريع لما أملكه من نقود، ولعدد الأيام المتبقية في الفيزا ذات الأشهر الثلاثة. قلَّصت وجباتي لوجبة غداء فقط، من مطعم باكستاني شعبي، كانت وجبة ساخنة رخيصة وتفي بالغرض. وكنت أفكر مرارًا قبل أن أشعل أي سيجارة. وسرت مسافات تفوق الخيال لتجنب نزيف الأموال، بل المتبقي من الأموال. لم أجد الغسالة متاحة في أي يوم أو ساعة لاستخدامها، كانت تدور دومًا وتدور وتدور، فكنت أضطر آسفًا لإرسال ملابسي لمغسلة التنظيف الجاف الباهظة، بعد أن تصل الحال لأقصاها، خصوصًا مع كمية العرق المريعة الناتجة من مسافات السير الشاسعة تحت الشمس الحارقة. عرَضَ رفقاء السكن المصريون عليّ مساعدات بِنيَّة خالصة، لكني رفضت ممتنًا للُطفِهم. كنت أعتبر نفسي في بلدي أساوي صفرًا، لكني لم أخرج منها حتى أصل إلى تحت الصفر بكثير. شكرتهم بصدق ونويت أن تكون التجربة مجردة من أي عون من أي نوع لاستبيان حقيقتها، حقيقة مطاردة الأحلام، التي نسيتها بالكامل، وحل محلها كوابيس الأرقام التي تنقص، من نقود وأيام متبقية، ورحلة عودة مرتقبة مُعَنوَنة بالفشل الذريع.

بعد نهاية كل يوم صرت أجلس وحدي بالساعات على الشاطئ لتجنب أي حوار، خصوصًا مع تكرار نداء المخدرات الداخلي. كان يذبحني ملل تلك الجلسات، لكنها كانت تناسبني

في تلـك الفـترة. شـعرت مـرارًا بالميـاه السـوداء تناديـني أن أقفـز بداخلهـا وأنهـي كل هـذا، لكنـي لـو قـررت هـذا فلـن يكـون هنـا بـأي حـال، مـن حـق جثتـي أن تطفـو في ميـاه تعرفهـا وتألفهـا.

في إحـدى جلسـات اليوجـا تلـك اسـتَنَدَ بجـواري شـاب يتحـدث في المحمـول بلهجـة مصريـة، فحانـت مِنـي التفاتـة لا إراديـة لـه، قبـل أن أرد بـصري نحـو سـواد الميـاه والمسـتقبل. بعـد أن أنهـى مكالمتـه لم يغـادر، ولم أُعِـره انتباهًـا كبـيرًا. ربـت عـلى كتفـي وسـألني بابتسـامة ممتلئـة بالـود:

- مالك؟

فـرددتُ باقتضـاب أن «كلـه تمـام»، فضحـك وقـال إن شـكلي لا يوحـي بـأي نـوع مـن أنـواع التـمام إطلاقًـا. تجاهـل تهـرُّبي مـن الإجابـة واسـتنتج أن صلاحيـة الفيـزا تنكمـش ومعـدلات الرفـض في المقابـلات الشـخصية تـزداد، واسـتطرد أن تلـك هـي حـال كل مـن بـدأ هنـا، وأن الصـبر مطلـوب والاسـتمرار بنفـس الهمـة والـروح القتاليـة حتـى آخـر لحظـة لهـو أمـر مصـيري، وعـرض عـليّ بعـد أن أعطـاني كارتًـا يحمـل أرقامـه، أن يُدبِّـر لي فيـزا جديـدة عنـد انتهـاء تأشـيرتي الحاليـة، لأعيـد المحاولـة لثلاثـة أشـهر أخـرى، وأن أرد لـه تكلفتهـا بعـد الحصـول عـلى عمـل. اسـتمريت عـلى رفـضي مـع شُـكري، وأننـي حـددت رصاصـة وحيـدة لهـذه الرحلـة. وقبـل أن يغـادرني مؤكـدًا جديـة عرضـه بخصـوص تجديـد الفيـزا، سـألني بإلحـاح إن كنـت أحتـاج نقـودًا، حتـى مللـت مـن كـثرة الرفـض.

مَـن الوغـد الملعـون المأفـون الـذي قـال إن المصريـين في الغربـة يولُّونَـك ظهرهـم إن لم يطعنـوك؟!

-١٠-

ثلاثة أسابيع متبقية حتى أعانق الفشل رسميًا.

وفي خضم كل هذا الانهيار المستمر يجب أن أتذكر الإماراتيين عمومًا بكل خير. لم يمثل لي أحدهم أي عنصر ضغط، بل تميزوا بالترحاب الشديد واحترام الدور في الطوابير والتواضع والألفة عمومًا وكثرة الابتسام. قسوة البلد نابعة من كونها شديدة الديناميكية والنظام، ومن كوني شخصيًا وافدًا يبحث عن عمل وهو غير مسلح بأي خبرات ولا مميزات.

تذكرتُ والديّ وفِراشي وأكل أمي وأصدقائي، وفوضى الشوارع وامتلاء الأجواء باللهجة المصرية، وطقوس المناسبات وزغاريد الزفّات وصياح الأطفال والخروجات، والسايس والمتسولين، وبصقتي الأخيرة وسعادتي وحماسي في الطائرة التي أتت بي إلى هنا.. فضحكت، وانتبهت أنها الضحكة الأولى منذ شهرين وأسبوع.

قطع ذكرياتي رنين هاتفي المحمول من رقم غريب كالعادة. كان اتصالاً من شركة أخرى ترغب في إجراء مقابلة لشخصي المصون المُبجَّل. ذهبت بفتور في اليوم التالي، ودارت المقابلة بحذافيرها مثل مثيلاتها، إلا من سؤال جديد:

- لماذا لم تعمل حتى الآن؟

لم أجب لثوانٍ، اجتهدت فيها ألا أنفجر ضحكًا، ثم أجبته أنني رفضتُ عروضًا أخرى لم تكن مناسبة حتى الآن. أزاح

الأوراق جانبًا وارتكز بذراعيه على المكتب ومال نحوي، وقال إن الفيزا في طريقها للنفاد، وإنني معدوم الخبرات، وأمورًا أخرى تصب فيَّ مزيدًا من الضغط على شخصي المصون المبجل. لا داعٍ لمثل هذه الأساليب، فأنا في انسحاق بالفعل، وإن كانت تلك هي المرة الأولى منذ مجيئي التي يأخذ فيها الحديث هذا المجرى التفاوضي. حبست أنفاسي وقلت في سري «ارمي بياضك» وأدرت دفة الحديث نحو العمارة نفسها، سائلاً إياه عن نوعية المشاريع والعمل المطلوب، فتحدث هو عن الخبرة الواعدة التي تنتظرني في مكتبهم.

لا بد أن ترسم طريقًا ملائمًا للطرف الآخر ينسحب من خلاله في المفاوضات.

أومأت برأسي، فرمى بياضه، وليتَه ما رمى. عرض راتبًا يكفي معيشة لا بأس بها، لكنه أقل من أسوأ توقعاتي بكثير. لم أهتم كثيرًا، اعتبرتها قُبلة الحياة لشخصي المصون المبجل السائر نحو الهاوية. وافقت وسأل عن ميعاد الالتحاق الممكن، فضحكت تلك المرة، كوني كالقطط الضالة عديمة الالتزامات والارتباطات، واتفقنا على اليوم الذي يليه للبدء الفعلي في العمل، بعد أن تحدثنا في شروط التعاقد كلها.

المفاجئ في الأمر أنني لم أشعر بسعادة على الإطلاق، بل شعرت بالمزيد من الابتعاد عن كل ما اكتشفت أنه بداخلي. أمامي عام كامل من تلك اللحظة قبل أن تطأ قدماي أرض موطني من جديد. عقاب عادل شاعري أستحق أضعافه. بشكل أو بآخر كنت راضيًا أن أفشل في كل هذا الكفاح وأعود لنقطة الأصل في بلدي بعد انقضاء الأشهر الثلاثة، لكنني الآن فتحت عدادًا تنازليًا آخر ذا 365 رقمًا، قبل أن أشعر بدفء من جديد.

أمـا عـدادي التنـازلي الآخـر المتعلـق بالنقـود فقـد أطلـق جميـع صافـرات الإنـذار واللمبـات الحمـراء. أردت مبلغًـا أحيـا بـه لحـين حصـولي عـلى أول راتـب بعدمـا التحقـت بـأول وظيفـة في حيـاتي بعـد ملحمـة جلجاميشـية. وفي مفارقـة لم أتوقـع إمكانيـة حدوثهـا طلبـت مـن والـدي مبلغًـا يكفينـي تلـك الفـترة، وأرسـله بالفعـل في تحويـل بنـكي عكـس الاتجاهـات تمامًـا، مـن مـصر للخليـج، وطّـد هـذا الدعـم ارتباطـي بالوطـن والأهـل، شـاعرًا أنهـما الملجـأ الفعـلي لي ولأي إنسـان ليـس نمـروذًا.

-١١-

ليس معلومًا أين ولا كيف استقر حارس الزمن الذي غُضب عليه، بعد أن ساهم مساهمة مباشرة في تبديد السلام الكوني والاتزان المعجز، ما نعلمه هو أنه نال جزاءً من جنس خطئه، ضاع في الأزمنة، وسيتأذى بتدوين القبح فقط، يسجل هنا وهناك، ويراقب هذا وذاك، ويجمع ويطرح ويقسم، ولن ينتج توازنه المفضل في أي يوم في أي عالم، بعد أن بهره التوازن يومًا.

دعنا منه ومن عوالمه وسجلاته، دعه في جحيمه وندمه ولعنته، ولنتابع ما يحدث في تلك القطعة من الأرض في ذلك العالم الذي بدأت عنده كل تلك التتابعات.

بعد قتل الرجل لصديقه جشعًا، وكل ذلك الصراخ وتلك الدماء، وقف «توبيا» فاغرًا فاه محدقًا في جثة صديقه غير مصدق ما فعله. جلس أرضًا بجانبها غير قادر على البكاء ولا الرحيل. ساعات مضت كذلك قبل أن يستفيق على صوت نهنهة «يون»، التي بسبب جمالها ارتكب «توبيا» جريمته. كانت متكورة ترتعد بجوار صف الأشجار الذي تبدأ من ورائه غابة كثيفة، كانت مقابلات الأزواج تتم فيها. نهض «توبيا» متحاملاً ورغب أن يتذوق غنيمته التي دفع ثمنها جريمة كبرى. سار إليها كارهًا إياها معتقدًا أنها هي السبب فيما فعله. كانت ارتجافتها تزداد مع كل خطوة يقتربها، إلى أن صار أمامها تمامًا، فأوسعها ضربًا، وهي لا تصرخ بل تنهنه مذعورة، ولا تدري أي ذنب استحقت بسببه كل هذا. انتهى من معاقبتها

عـلى مـا لم تفعلـه، فأمسـك بشـعرها وجرَّهـا متواريًـا بهـا داخـل الغابـة.

أخـذ صـدر «ديـس» يعلـو ويهبـط وهـي تراقـب مـا يحـدث. جرَحها اشـتهاء رجلها لامـرأة أخـرى حـد أن قتـل صديقـه البريء. ظلـت تراقـب ضربـه لـ«يـون»، فانفرجـت أسـاريرها، قبـل أن يجرها خلفـه. دخـول أنيـاب ثعبـان في عنقهـا كان ألطـف كثـيرًا عليهـا مـن دخـول رجلهـا بامـرأة أخـرى للغابـة. تسـللت خلفهـما واتخـذت مخبـأ تراقبهـما منـه، وهـي تفكـر في كيفيـة مناسـبة للانتقـام، ليـس مـن «توبيـا» القـوي بالطبـع، بـل مـن «يـون» المجرمـة التـي تجـرأت وصـارت أجمـل منهـا.

أمـا هـذا مَـن حـاول منـع هـذه الجريمـة، كان في حالـة كـبرى مـن عـدم التصديـق، والشـعور بالذنـب والهزيمـة. لـو كان أسرع مـن أخيـه الـذي وسـوس، لمـا حـدث كل هـذا، لـو كان أقـوى.. لـو كان ذا حجـة وتأثـير أعظـم عـلى «توبيـا».. لـو كان خنـق أخـاه في جـوف الشـجرة قبـل خروجـه للعـالم.. لـو... لـو... لـو...

أمـا عـن كيفيـة اسـتقباله مـع أخيـه للعنتهـما، بتجريدهـما مـن الماديـة، فكانـت كالتـالي: مـع الـصراخ والـدم اللذيـن ملئـا المـكان بعـد جريمـة القتـل، وبعـد تناثـر كل تلـك الدمـاء والعظام المهشـمة، ومـع نـزول اللعنـة والعقـاب، مـادت الأرض بكليهـما، وشـعرا بالمعنـى الحقيقـي للّهيـب، ريـح لافحـة عاتيـة أتـت عليهـما بقـوة، أخـذت ذرات جسـديهما في التباعـد والحركـة بعنـف، والتطايـر في مـدى الكـون. تجريـد كامـل بطـيء مـؤلم لكينونتيهـما الماديـة، صـارا شـبحين مرئيـين، أصبحـا يريـان الجـن والبـشر.

تراجـع في كينونتـه الطيفيـة الجديـدة، أخـف حركـة، نعـم، لكـن

مذنب ملعون مهزوم نادم، فاقد للمادية، مع حقيقة مؤلمة إضافية، إن هذا ما هو عليه صار أبديًا. تراجع وفر من كل هذا، جرى لاهثًا نحو تلك الجبال البعيدة ليتوارى، لم ينظر خلفه، فقط يريد أن يختبئ حتى ينتهي هذا العالم الذي كان متزنًا جميلاً وأصبح قبيحًا مذمومًا.

بعكس أخيه الذي خرج من آلام التحوُّل إلى طيف، شاعرًا بانتعاشة ما، منتصرًا، منتقمًا ممن ركله حال رؤيته، متفردًا بالمكان بعد سقوط حارس الزمن في غياهب عميقة، ورحيل أخيه إلى أراضٍ بعيدة متواريًا.

لم يفكر كثيرًا، فقط انطلق منتشيًا في الأرض يبحث عن سيطرة أكبر، وبشر أكثر، في أرض أوسع. كان يقابل أثناء ترحاله نمرًا مسالمًا يأكل عشبًا، فيمر من خلاله لتلتمع عينا النمر وتستطيل أنيابه ويصدر خرخرة مكتومة وهو يرفع عينيه نحو غزالة قريبة. يترك النمر فيما أصبح فيه، ويسير ليجد ضباعًا تنبش الأرض لحفر حفرة تواري حمارًا نافقًا، فتتلاقى أعينهم معه ليصدرون صوتهم الشبيه بالولولة وينقضُّون على جثة الحمار يمزقونها ويأكلونها بدلاً من أن يدفنوها. يمرر أصابعه على نحلة بعينها وسط آلاف النحل المنهمك في امتصاص تلك الورود، فتأكل شقيقتها وتتضخم ويقوى زنبها وتصبح دبورًا ضخمًا يهجم على زُمرة النحل ويشتتها بعد أن يقتل معظمها. يسير ويمر خلال جبل عظيم فيرتج وتنفجر قمته قاذفًا بحمم كثيفة ويصبح بركانًا أبديًا. يشير نحو البحر الهادئ فتولد أمواج مهتاجة تتسابق لتلطم الأرض التي تقذف البحر بحجارة تستقر في جوفه. ينظر للسحب فترد عليه ببرق وهزيم. اسودَّت كل أرض هو عليها، وتعاظم شعوره بالسيطرة والقوة، إلى أن وجد

قبيلة كثيفة البشر، وأدرك في لحظة أن امتلاكهم مستحيل، والسيطرة عليهم ليست يسيرة، فاعتلى شجرة ليراقبهم، ويبحث عن مدخل إليهم.

أما أخوه الذي تجرَّع الهزيمة، فاستمر في هرولته هروبًا. خائفًا مذعورًا شاعرًا أنه سبب أساسي في هذا العبث الذي حدث، وما زال يحدث. يسمع الرعد فيتعثر ويزحف قليلاً قبل أن ينهض مهرولاً من جديد. لا ينظر للوراء أبدًا. يشق الكون صوت زئير أو عواصف فيتضاعف خوفه ويزداد سرعة محاولاً أن يصل إلى تلك الجبال العتيدة لتُخبئه، إلى أن يصل إلى مدخلها بالفعل. سريعًا يتوارى في أحد ممراتها وهو يلهث ويرتجف. جلس أرضًا شاعرًا أنه اختبأ فعلاً، فيترامى إلى أذنيه صوت همهمة بشرية، لم تخفه تلك الهمهمات الخافتة المتقطعة، تبدو صادرة عن صدور يعتلُّ بها مثل ما بداخله بالفعل؛ للندم رائحة وشخصية. نهض وسار بجانبه متحسسًا الجبال، من ممر إلى ممر، يمينًا يسارًا، يضيق ويتسع ويضيق، والهمهمة مستمرة وبدت أوضح وأوضح، إلى أن خرج من أحد الممرات ليجد سهلاً واسعًا منبسطًا محاطًا بالجبال الشاهقة، وأعدادًا من البشر جالسة بين القرفصاء والانبطاح، وبعضهم يتقلَّب أرضًا ببطء وآخرين يضربون بقبضاتهم الصخور وهم يبكون، وآخرين يمسكون بجلود طويلة مطوحين بها أذرعهم من فوق الكتف ليجلدوا ظهورهم التي تدمي بالفعل. قبيلة من الموتورين، لكنها أشعرته بالارتياح، وأنه ينتمي إلى كل هذا الذي يحدث.

-١٢-

رغـم كل الآلام والحنـين المفاجـئ للوطـن، ورغـم افتقادي الشـديد للترامـادول، لكـن ذلـك التحديـث المهـم في الأمـور ضـخ دفقـة لا بـأس بهـا مـن الأدرينالـين، سـاعدتني أن أتحـلّى بالهمـة وقليـل مـن الحـماس.

كالمقاطيـع عديمـي الالتزامـات بـدأت العمـل في اليـوم التـالي للمقابلـة الشـخصية بالفعـل. سـلّمني ديفيـد صاحـب الشركـة لقائـد الفريـق، كطـرد مـن فيديكـس عابـر للقـارات. كان مصريًـا في بدايـات الخمسـينيات، وارتحـت لذلـك كثـيرًا؛ عـلى الأقـل سـيقول لي يومًـا مـا لائمًـا «مخلصتـش لحـد دلوقتـي ليـه يـا باشـا؟»، قـد يكـون يومًـا مـا سـعيدًا منتعشًـا فيقـول لي «منـوّر يـا كبـير»، قـد يكـون في يـوم آخـر تحـت ضغـط كبـير، في نفـس اليـوم الـذي سـأكون سـهرت الليـل كلـه أعـاني مـن آلام في ضرسي دون أن تجـدي المسـكنات، فأصـل متأخـرًا فينفجـر في صائحًـا «الاسـتهبال ده مـش هيأكلـك عيـش معايـا يـا معلـم». ففاجـأني بالعكـس تمامًـا في التعـارف بالعربيـة الفصحـى:

- انضمامك لفريقنا شيء يسعدنا.

ارتبكـت ولم أعلـم كيـف يفـترض أن أرد. عمومًا تعارفنا واكتشـفت أنـه يتحـدث مقاطـع كبـيرة جـدًا مـن أحاديثـه بالفصحـى، لأسـباب أجهلهـا، وإن أعطـاني هـذا دومًـا شـعورًا أننـي أسـمع ترجمـة أنيـس عبيـد عـلى الأفـلام الأجنبيـة بعـد أن كنـت أقرأهـا. لم أسـتطع ولم أحـاول أن أحادثـه بنفـس الطريقـة. بـل اجتهـدت بشـدة ألا

أستبدل كلمات بعينها من اللهجة الأم بكلمات مرادفة دارجة في الحوارات اليومية هناك، مثل «اتحصّل على عمل» بدلاً من «اشتغل»، و«سيارة» بدلاً من «عربية».. «رن عليه أو اتصل عليه» بدلاً من «رنله أو اتصل بيه»، وكلمات أخرى كثيرة. تفهمت أسباب انجراف الجميع تلقائيًا إلى تلك الكلمات البديلة، من كثرة التكرار من حولهم، لكن هذه التفصيلة كانت تهمني بشدة من ضمن ما ملأ اهتماماتي، سأظل دائمًا من كنت ولن أكن من يُصيِّرونه.

من البحث عن الذات إلى الدفاع عن الهوية.

عرّفني المهندس رفيق على معظم أفراد الشركة، جنسيات كثيرة ومعظمهم يتمتع بنفس الميكانيكية الرتيبة الآلية.

وسريعًا دعا إلى اجتماع لتوزيع وتنسيق أعمال الفترة القادمة. شعرت بالضآلة تزداد، وإن كان الوضع أفضل، كوني صرت ترسًا ما في ماكينة ما. على مائدة الاجتماعات التي جلست عليها للمرة الأولى في حياتي، مع أناس تعرفت بهم منذ دقائق ثم نسيت أسماءهم، وأمام كل منا رزمة من أوراق بيضاء تمامًا وقلم رصاص. دار الحديث بالإنجليزية، اللغة الدائمة شبه الرسمية. كان المهندس رفيق يتحدث عن المرحلة القادمة في أعمال مستشفى كبير.

انفرجت أساريري بشدة، حيث إن المستشفى يعتبر أصعب أنواع المباني، لاحتوائه على كمٍّ مرعب من التفاصيل والعلاقات، وجميعها بلا استثناء تتعلق بحياة أشخاص أو صحتهم وسلامتهم. نسبة الخطأ يجب أن تساوي صفرًا. ممنوع زوايا قائمة لكونها مكانًا مناسبًا لظهور وتكاثر البكتيريا والجراثيم،

ممنـوع أن يتقاطـع مسـار جثـة أي متـوفًّى مـن غرفتـه للمغسـلة للمشرحـة للثلاجـة، مـع أي مسـار للقادمـين للمستشـفى حديثًـا وباقـي المـرضى عمومًـا، لتجنـب التأثـير سـلبًا عـلى معنوياتهـم، بالإضافـة إلى حرمـة المـوتى واحترامًا لمشـاعر ذويهم. مدخـل الطوارئ والتحـركات المتتابعـة المحمومـة بداخلـه، وعلاقتـه بالشـارع الرئيسي وأقسـام المستشـفى المهمـة. تصميـم طـرق وطرقـات التعامـل مـع المخلفـات الملوثـة حتـى المحرقـة، وكيفيـة توجيـه دخـان مخلفـات الحـرق بعيـدًا بأمـان، وكيفيـة فصـل كل هـذا تمامًـا عـن الواجهـة الرئيسـية وعـن مـرأى أي مـن الزائريـن عمومًـا.

كل هـذه الأفـكار كنـت أرسـمها نبشًـا عـلى رزمـة الأوراق الماثلـة أمامـي، قبـل أن ألحـظ همهمـة مـا، فرفعـت عينـيّ لأجـد كل الحاضريـن بـلا اسـتثناء يتابعـون مـا أفعـل، وتباينـت ردات أفعالهم، وإن ظهـرت بعـض أشـباح الابتسـامات عـلى وجـوه بعضهـم. فقـال لي مهنـدس رفيـق بالإنجليزيـة:

- لا تتعجـل الأمـور.. أتفهـم وأشـعر كـم الطاقـات والأحـلام بداخلـك، لكـن يجـب أن تتحـلى بالصـبر والكياسـة، وأن تحتفـظ بشـغفك كـما هـو في أقصـاه وتفجـره كاملاً في أصغـر أصغـر مهمـة تُـوَكَّل إليـك.

ثـم اسـتطرد أن مرحلـة التصميـم التـي هـي حلـم كل معـماري قـد انتهـت بالفعـل، وأن العمـل الجـاري متعلـق بتطويـر التصميـم وتجهيـزه إنشـائيًا وتنفيذيًـا. مرحلـة سـمجة جـدًا ومليئـة بالصـداع، يظـل عـلى أثرهـا مـشروع المستشـفى هـو الأصعـب أيضًـا، ولكـن لأسـباب أخـرى، منهـا كـثرة خطـوط ومواسـير الميـاه والـصرف والكهربـاء والغـاز الطبـي والتكييفـات والتهويـة والتعقيـمات، وعلاقـة كل هـذا بـكل شيء وأي شيء. أضـف عـلى هـذا توصيـف

ورسم الأبواب المروحية التي تفتح في الاتجاهين لزوم الطوارئ والحركة السريعة، وأهمية احتوائها نفسها على النوافذ الزجاجية لتجنب اصطدام الراكضين في اتجاهات متعاكسة، بالإضافة إلى تجهيز أسفلها بألواح استانلستيل تتلقى صدمات الأسِرّة والمقاعد المتحركة وركلات الأطباء والممرضين راكضين في كل الاتجاهات. لا مجال للاختيار الآن عمومًا، ولكن البداية كانت متعثرة، بعد أن أخبرني المهندس رفيق أنني سأكون مسؤولاً عن تجهيز الحمامات.

كتم بعضهم الضحك وضحك آخرون بالفعل، وكأنني سأقوم بتنظيف الحمامات لا هندستها.

بعيدًا عن توافه الأمور ونواقص البشر والاستهزاء بالمبتدئين في أي شيء، فقد انخرطت بشدة في تلك المهمة، بل واستمتعت جدًا بتجهيز حمامات المُعاقين بالذات. كنت أعرف من دراستي معايير تلك الفراغات الخاصة، لكنها الآن محل تطبيق فعلي سيؤثر على أشخاص عمومًا ومعاقين خصوصًا. مقاس أكبر للباب وعرض أكبر للحمام، وتوزيع معين لأجهزة الحمام، بحيث يسمح كل هذا بدخول المقعد المتحرك ودورانه دورة كاملة. تلك الذراع التي تدور على نصف مفصلة لتصبح عمودية على الحائط فيرتكز عليها الشخص لينقل نفسه بنفسه من المقعد المتحرك للمرحاض والعكس.. تفاصيل مثل هذه، بالإضافة إلى ارتفاعات الحوض والصنبور والمنشفة، تضخ ثقة وسعادة غامرة في قلوب هؤلاء الصابرين التوَّاقين للاعتماد على النفس. ولكن.. يُمنَع منعًا باتًا أن يكون لتلك الحمامات قفل من الداخل، والمقبض نفسه يفتح بتحكم كامل من الخارج، يوجد حد معين من الأمان تنتهي عنده تلك الرفاهية تحسُّبًا لأي طوارئ.

غرقت ونهلت من العلم وانهمكت حقًا في العمل، ولم أنسَ التصميم.. ظلت بوصلتي تشير إليه. وعندما كنت أستفيق من كل هذا كانت سكين الوقت تذبحني. كانت «أمنية» زميلتي المصرية المقيمة هناك مع أهلها خير معين في تلك الأحاسيس، كان يمزقها حد الدموع مجرد ذكر اسم مصر من فرط الاشتياق. أدركت أن غياب الأهل والأصدقاء ليس هو اللعنة الوحيدة، تأكدت أن تراب الوطن في حد ذاته كائن حي ترتبط عاطفيًا به لأقصى مدى، ويلحق به باقي التفاصيل والبشر والأشياء. أذكر في إحدى المرات التي كنت أدخن فيها في الأوفيس أن أمسكت بالتقويم الإلكتروني المُعلَّق على الحائط وحركت مؤشر الأيام فيه من يوم ٣ إلى يوم ٢٩، في اللحظة التي تصادف فيها دخول «أمنية» لأخذ شيء ما من الثلاجة، أشرت لها على التقويم مازحًا، ولصدمتي صدَّقتْ هي من فرط اللهفة، وأشرق وجهها وصاحت من الفرحة أن ثلاثة أيام متبقية على نزولها مع عائلتها إلى مصر في إجازة. ارتبكتُ أنا وأشفقت عليها وأنا أكشف مزحتي السخيفة، راجعًا بالتقويم إلى يومه الصحيح. فاجأتني وقتلتني دموعها ووددت أن أفعل مثلها.

كوّنّا في المكتب -بطبيعة الحال- فريقًا، أنا وأمنية وشريف، المصري الوحيد بخلافي أنا ورفيق الناطق بالفصحى. كان المهندس رفيق يتحفظ على مثل هذه التجمعات ذات الطابع القومي، كوننا جميعًا يفترض أن نكون مجتمعين على عمل وهندسة، لا على قوميات وذكريات. كانت أحاديثنا ودودة للغاية، إلا حينما يحين ذِكر افتقاد الوطن، كانت تتوتر الأمور. شريف من عاشقي النظام والبنايات الشاهقة والمرور والابتعاد عن «البلد المهرجلة» -حسب وصفه- التي يكرهها. كانت الحوارات

تتشنج عندما نذهب لهذا المنعطف، وكنت أنا وأمنية ننفعل بشدة عندما يتطرف هو في وصف مكاره البلد التي هرب منها راضيًا تمام الرضا بما هو فيه الآن. فيما عدا تلك النقطة فهو شخص لطيف واعتبرته صديقًا، إلى أن جاء اليوم الذي دار بيننا حديث غيّر حياتي. سألني مباشرة:

- نووي ولا صوفي؟

- هو إيه ده؟!

- شكلك نووي.. أول ما شفتك هرشتك.

- الحقيقة أنا نووي بس مخبي فعلاً، وأحيانًا ببقى صوفي لكن بالليل بس.

- آه نسيت إنك جديد هنا معلش، صوفي يعني مبيضربش، فهمت؟

- أهاااا، لا حيث كده أنا نووي فعلاً، كنت نووي قبل ما آجي البلد دي. وإنت إيه؟ نووي ولا صوفي؟

- مكنتش سألتك يا غالي.. أهلاً بيك في أرض الأحلام!

- أهلاً بالكبير الغالي! عندك إيه بقى؟ عشبي ولا مائي؟

- كيميائي.

- لا ده كتير.. بجد كتير!

- بس مش ترامادول. التحركات هنا صعبة جدًا.

- أومال إيه اللي عندك؟

- ريفتاجول. عقار لا غنى عنه لكل معماري دحيح زيك.

- مش فاهم. إشمعنى يعني؟

- بيسـهّر لمـدد طويلـة جـدًا، وبذهـن صـافي وتركيـز عمـرك مـا عشـته.

- واحدة واحدة يا عم.. واحدة واحدة. هو دوا إيه أساسًا؟

- للأطفـال المهيبريـن الـلي عندهـم نشـاط زيـادة مـن كهربـا أوفـر في الدمـاغ.. بيهديهم.

- يا عم مهدئ ولا منبه؟

- متـسرع رعديـد. أرعـن أهـوج. هـي دي معجـزات الكيميـا يـا صديقـي. هـو للأطفـال مهـدئ وللكبـار منبـه.

- بيعالج إيه للكبار؟

- الاكتئاب.

- لا لا لا الحاجـات دي لأ. مـش كويسـة الأدويـة النفسـية يـا شريـف خالـص. إنـت بيعمـل معـاك إيـه؟ وبترفعـه مـن إمتـى؟

- لا أنـا لسـه مكتشـفه، هجربـه قريـب، وإذا طلـع طفـش يبقـى هتكسـب إنـك اسـتغنيت عـن النـوم كـذا يـوم، ابقـى اسـتفاد بيهـم في الشـغل والأوفـر تايـم. هـا؟ تقـص الشريـط معايـا؟

- حدد الزمان والمكان.

- لسه هيجيلي بعد كام يوم. هبقى أظبطلك معايا.

فنقلـت شريـف مـن خانـة الصديـق إلى خانـة الحليـف والأخ والرفيـق.

-١٣-

انهمكت في العمل وفي انتظار وصول ذلك الريفتاجول. في أحد الأيام شعرت بيدي «تأكلني» حسب التشبيه الشهير. لم أقاوم النداء، أزحت أعمالي جانبًا وانخرطت في رسم اسكتش منظور عين طائر لمبنى غير محدد، قررت أن أفعل فيه ما أشاء، تفاصيل كثيرة، تصميم عديم أي جدوى لمبنى غير مطلوب، لكني انهمكت بانعزال كامل عن المحيط. يوم عمل كامل مر في الهواء لكن دون ندم، أمسكت باللوحة وشعرت بالرضا والراحة. في اليوم التالي أثناء مرور ديفيد صاحب الشركة وقع بصره على وليدي الاسكتش. توقف بغتة واقترب وأمسكه وفحصه كطبيب يمسك صورة أشعة. طلب مني أن أصاحبه لمكتب رفيق، وعرض عليه اللوحة وأقرّا أن لديهما موهبة تصميمية غير مُستغلة موضوعة في غير ما تستحق، والمزيد من هذا القبيل، وطلب منه أن يوظّف هذا التصميم في مشروع فيلا معينة تم تكليف المكتب بها قبل مدة قريبة، بعد ضبط بعض الأمور بالطبع، وأمره بعدها أن أنتقل إلى قدس الأقداس، المحراب الأكبر، قسم التصميم.

كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي أتأكد فيها أن الهواء يحوي أوكسجينًا، شعرت به يُحيي رئتيّ، وتلَوّنَت الدنيا بألوان قوس قزح. انقضضت على الفرصة انقضاضًا. لم أعمل في أي يوم بعدها أقل من ثماني عشرة ساعة، وأحيانًا كنت أبيت في المكتب، متهالكًا نعم من قلة النوم، لكن مدفوعًا بوقود

اصطياد الهدف. وخرج المبنى من يدي في شكل يشيد به العدو قبل الصديق. ارتفعت أسهمي بشدة؛ كُلِّفت بمبنى جديد، وأمسكت بأقلامي ولوحة بيضاء.. ولم يأتني الوحي.

وكأنني أُحضِّر عفريتًا. اعتصرت حواسي جميعها، سرت كالمحموم في دوائر في المكتب، رسمت ومسحت عشرات المرات، لم يبق إلا أن أوصل الكهرباء بصدغي. ولم يسفر هذا عن أي شيء، حتى اقترب الميعاد النهائي للتسليم، فاضطررت لرسم أي شيء، وكانت نتيجة مفزعة مقززة. تساءل رفيق وديفيد والجميع عن كيفية أن يُنتج هذا من أنتج ذاك سابقًا، رددت بالإجابة الحقيقية الوحيدة المتعلقة بالوحي والإلهام اللذين يأتيان من تلقاء نفسيهما دون استدعاء، فكان ردهما بليغًا.. إعادتي من حيث أتيت في قسم الرسومات التنفيذية الرتيبة عديمة الإبداع. وللمفارقة، كنت من ضمن الفريق المكلف بتجهيز رسومات المبنى الذي صممته أنا، لكن من دون قبعة إبداع تلك المرة، بل واحد من ضمن ثمانية يقومون بترجمة ونقل التصميم الإبداعي لمفردات إنشائية جافة.

أيام مرت، اختير المكتب بعدها من ضمن خمسة مكاتب استشارية للاشتراك في مسابقة لتصميم ناطحة سحاب عملاقة، في مكان مميز في دبي. كان الاهتمام بلغ حدًا غير مسبوق، للدرجة التي خففت تركيز الكبار على ما يقوم به الآخرون (وأنا منهم) من أعمال، وانصبّ الاهتمام الأعظم على ذلك البرج وتلك المسابقة. مجددًا أمسكت العدة محاولاً الإتيان بتصور مبدئي للتصميم، علّ يتكرر ما حدث سابقًا في الفيلا.. لكن ما زال الوحي يجول المجرة بعيدًا عني حينها.

أنهيت الدوام في ذلك اليوم الذي لن أنساه أبدًا، أعني لن

أنساه فيما تبقى في حياتي من دقائق، وقبل أن أغادر جاءني شريف مبتهجًا، وقال دون تورية:

- الريفتاجول معايا.. جالي النهارده. دايس؟

- طبعًا.

- تجيلي الساعة تمانية ومعاك أربعة ريد بول.

- تعطينا جوانح؟

- إنت بقيت خليجي أهو.. تمام.. تعطينا جوانح جامدة. الديلر قالي إنها بتعلي دماغ الريفتا فشخ.

تم اللقاء في الميعاد في الاستوديو متناهي الصغر الذي يسكنه شريف. جلست على المقعد الوثير الوحيد في الركن ورقد هو على الفراش مواجهًا للتلفاز. رفعنا الريفتاجول، وطبقًا للتعليمات انتظرنا الدماغ أن تحدث ليتجرع كلانا كانزايتين الريد بول. انتظرت ولم يحدث شيء. جالسًا على الفوتيه مترقبًا، ولا أي شيء. بينما شريف متجمد محملق في التلفاز بتجهُّم، ولم ألحظ متى ولا لماذا شرب علبته. تحدثت إليه ولم يجب ولم يلتفت ولم يرمش. عدلت جلستي مرارًا، ولا شيء. أخذت أصفّر بخفوت وأنا أنقر بأصابعي، حتى شعرت بتنميلة متسارعة تتصاعد من قدمي لأعلى لتكسوني بالكامل، بينما صوت صافرتي أصبح عميقًا رخيمًا بطيئًا ينساب بعمق وثبات في الملكوت السرمدي، ونقر أصابعي يصدر صوتًا بطيئًا لطبول ضخمة. سريعًا انحنيت على طاولة القهوة وفتحت علبتيّ الريد بول، وما أن خفضت رأسي منتهيًا من الثانية حتى وجدت كل شيء اختفى تمامًا وصرت أمام شبكة لا نهائية من خطوط مستقيمة قصيرة أفقية ورأسية تصل بين كريات صغيرة موزعة بانتظام،

كشبكة رسم بياني ثلاثية الأبعاد. اقتربت فوجدت أنني لا أسير بل أطفو بخفة، نظرت في كل الاتجاهات لأجد هذه الشبكة ممدودة بلا نهاية، ارتفعت سابحًا في الهواء ثم لمست أحد تلك الخطوط فتوهج وصار أوضح بكثير من إخوته، لم أفلت يدي وأخذت في التحرك ببطء لتتشكل ورائي خطوط راسمة مساري الذي أردته.

فهمت.

طرت للوراء لأشاهد أوضح، غير مصدق.

واشتعلت الأجواء بموسيقى التكنو بعينها التي أشغلها أثناء عملي، عالية نارية حماسية. وطرت أنا سريعًا لأمسح ما رسمته وأبدأ من جديد. بوم بوم بوم تسسسسس بوم بوم بوم راتاتاتاتاتاا. بدأت بتشكيل كتل صماء تحدد أبعاد المبنى الرئيسية طبقًا للمتطلبات ولقوانين البناء. ناطحة السحاب بالطبع، التي قرأت برنامج مسابقتها قبل أن تنتقل تلقائيًا لفريق التصميم في الشركة.. بوم بوم بووووم.. انطلقت في تشكيل الكتلة الأولى من مكونات معظم البرج، القاعدة.. المصطبة.. Podium.. بمعظم مسطح الأرض، بارتفاع ليس بالكبير، أربعة طوابق.. راتاتاتاتاااااا.. طرت فوق سطحها وحسبت بعض الحسابات باستخدام تلك الكريات والخطوط لأتمركز في منتصف تلك الكتلة لأنطلق في تشكيل الكتلة الثانية.. البدن.. جسم البرج نفسه، صاحب النصيب الأكبر من الارتفاع، والرشاقة أيضًا.. بوم بوووووم تس تس تسسسسسس بوم.. كسوبر مان طرت للأعلى ممسكًا بالخطوط لأشكل تلك الكتلة الجديدة، ثم الكتلة الأخيرة، التاج، أصغر كتلة، الأيقونة التي ينتهي عندها نظر المشاهدين، راتاتاتاتتاااااا.. كوّنت كل هذا

فقـط لأبـدأ. ابتعـدت عـن الـبرج وطـرت حولـه في مسـار حلـزوني صعـودًا وهبوطًـا، بـتردد اقتربـت مـن البـدن لأبـدأ بتشـكيل قـوس عمـلاق عـلى إحـدى الواجهـات، بيـد مرتجفة أخـذت أنزلق ليسـتمر الرسـم، فسـمعت صوتـه واضحًـا جليًـا يصاحبـه صـدى، وسـط كل تلـك الموسـيقى الصاخبـة قائـلاً: «كفتـة بروسِـس.. براحتـك». حـاضر يـا دكتـور.. تحـررت مـن الحـذر، وانطلقـت بحـماس وحريـة في جميـع الاتجاهـات صعـودًا ونـزولاً ودورانًـا، أمـدّ يـدي فـوق كتفـي كالجَـرَّاح في غرفـة العمليـات، لتأتينـي الكتلـة التي أريدهـا بالضبط، أقـوم بتضخيـم حجمهـا الإجـمالي، ثـم أمطهـا مـن اتجـاه وأضغطهـا مـن آخـر، وأطـير لأضعهـا في مـكان بعينـه في الواجهـة قبـل أن أطـير مبتعـدًا مـن جديـد لأشـاهد الأثـر الجـمالي لهـذا التشـكيل.

أحـذف وأضيـف وأضبـط أوضاعًـا في البـدن، وأطـير للأسـفل لأضـع تشـكيلاً يتناسـق مـع التصميـم أعـلاه، أطـير مبتعـدًا مـن جديـد لأشـاهد فأتذكـر أحـد أسرار الكـون، فيبوناتـشي، 1.618، النسـبة الذهبيـة، نسـبة أطـوال كل العظـام في جسـم الإنسـان بعضهـا لبعـض، نسـبة ذكـور النحـل للإنـاث في الخليـة، نسـب تكويـن شـكل زهـرة عبـاد الشـمس ونجـم البحـر والدلافـين، تمثـال رأس نفرتيتـي ولوحـة الموناليـزا، الأهـرام ومعبـد البارثينـون اليونـاني، حـركات رقصـة الصوفيـين وشـكل المجـرات الحلـزوني، لوجـو بيبـسي وآبـل وناشـيونال جيوجرافيـك، لـن أحيـد عـن هـذا السـر. طـرت مجـددًا دون توقـف للتعديـل وضبـط نسـب الكتـل بعضهـا لبعـض وللـكل، نسـب الزجـاج للمعـدن، نسـب البـارز للغاطـس. العنـاصر جميعهـا في حالـة طاعـة ورضـوخ كاملـين لذراعـيّ. لم أشـعر بالتعـب إلا بعدمـا انتهيـت مـن تلـك المرحلـة بعـد تشـكيلات وتعديـلات متناهيـة الكثافـة، وابتعـدت طائـرًا في الهـواء ألهـث

والعرق يتساقط كالمطر. ببطء دُرت حول البرج دورتين كاملتين لمشاهدة أخيرة، قبل أن أسكن لاهثًا، وأمد يدي لتسقط بها لوحة معدنية لامعة كبيرة بها زرين.

تنفست مليًا قبل أن أضغط على زر يحوي مثلثًا يشير جهة اليمين، ليبدأ اختبار الأحمال. نقلت بصري للمبنى مترقبًا. اهتز اهتزازة خفيفة سكن بعدها، بينما بقع كثيرة متناثرة أخذت تتوهج باحمرار قبل أن يخفت الوهج ويتلاشى، ومضات سريعة متلاحقة لكن عددها كبير، اختفت جميعها بعد ثوانٍ إلا من بقعتين، أخذت مساحتا توهجهما تزداد وتنتشر وتزداد احمرارًا، إلى أن تمددتا سريعًا وتلاقتا، ليبدأ البرج في الميل ببطء في اتجاههما. لم أجزع، فقط ضغطت الزر الثاني الذي يحوي مربعًا، ليسكن كل شيء محافظًا على احمرار أماكن الضعف التي توهجت. بهمة متجددة طرت مخترقًا البرج لأعدل التصميم الداخلي في تلك المواضع مضيفًا دعامات معيدًا تقسيم فراغاته. صمتت الموسيقى تمامًا لأسمع صوته ناعقًا بوضوح: «يا ابني الإنسان جواه قرد»، «ميتينك يا دكتور!»، لتعود الموسيقى أعلى مما كانت وأنول أنا حرية كاملة في تعديل ما أريد كيفما أريد. وصلت للتعديل المثالي الذي محا آثار التوهج، فطرت مبتعدًا من جديد لأشاهد وأعود لأضع اللمسات النهائية لتوفيق التعديلات مع العناصر الرئيسية. وقفت مكاني السابق لأبدأ الاختبار الأصعب على الإطلاق. لوحة ذات ذراعين، أمسكت أحدهما ورفعته قليلاً لتهب الرياح قوية مستمرة من أحد الجوانب، تركتها قليلاً ثم أوقفتها بغتة، فتوهج الجانب الذي كان يواجه الرياح بأكمله توهجًا مرعبًا، قبل أن يخفت ويستقر. ينهار المبنى في عكس اتجاه الرياح وليس معه. تخيل شخصًا

يدفعـك بشـدة وأنـت ثابـت مكانـك ثـم يـتركك فجـأة، سـتقع باتجاهـه هـو. أعـدت الكَـرَّة مـع ريـاح أقـوى وتوقيـف مباغـت.. توهـج مريـع ثـم اتـزان. رفعـت الـذراع الثانيـة قليـلاً لتهتـز الأرض ومـا عليهـا، بقـع صغـيرة متناثـرة تحمـرّ وتتـلاشى، رفعـت الـذراع أكـثر، ٥ ريخـتر، حجـم البقـع يـزداد وعددهـا يكـبر وتتـلاشى، ٧ ريخـتر وكأن المبنـى يرقـص وأنـوار فِراشـة حمـراء تكسـوه وتتـلألأ، ثـم يسـتقر. رفعـت ذراع الريـاح لأقصاهـا في نفـس الوقـت، اكتسى المبنـى بأكملـه بالأحمـر وأنـا مترقـب حابسًـا نفـسي، قبـل أن يبـدأ اللـون في الـزوال تدريجيًـا مـن دون زوال المؤثِّرَيْـن معًـا، ومـا أن اختفـت آخـر نقطـة حمـراء حتـى اشـتعلت السـماء بأضـواء زاهيـة وانطلقـت الألعـاب الناريـة بكثافـة في جميـع الاتجاهـات، اكتـمال الكـمال وتكامـل الجـمال.. أجمـل مبـاني الأرض.

تحولـت الموسـيقى إلى سـيمفونية، تراقصـتْ عليهـا نوافـير صعدت مياههـا بحيويـة مـن كل الأماكـن، بينـما البـرج راسـخًا متألقًـا وسـط كل هـذا المهرجـان. ومـن دون سـابق إنـذار احمـرّ المبنـى بأكملـه مجـددًا مُطلقًـا صافـرات إنـذار كثيفـة، وكتلـه تتداخـل وهـو ينصهر. مذعـورًا تلفَّـتُّ لأجـدني واقفًـا أمامـه أرضًـا وعربـات المطافـئ تـأتي مذعـورة مـن كل مـكان، وسـاريناتها تـصرخ كجـرس المنبـه وقلبـي يـكاد يتوقـف. وانطلـق رجـال المكافحـة حاملـين الخراطيـم، موجهينهـا نحـوي أنـا وليـس المبنـى، وقبـل أن أشـير لهـم عـلى الـبرج كانـوا فتحـوا خراطيمهـم لتندفـع الميـاه البـاردة كالطوفـان في وجهـي، لأقـف مذعـورًا في اسـتوديو شريـف الواقـف أمامـي مذهـولاً وممسـكًا بزجاجـة ميـاه أفـرغ مـا كان فيهـا في وجهـي، ثـم قـال بصـوت متحـشرج: إيـه يـا ابنـي! فيـه إيـه الـلي بيحصـل؟ يـلا السـاعة ثمانيـة اتأخرنـا عـلى الشـغل!

-١٤-

لا يمكن!

مستحيل!

لا يمكن أبدًا!

هكذا كنت أصيح بينما الماء المسكوب يتصبب من وجهي. لم أتقبل بأي حال من الأحوال فكرة أن كل هذا كان حلمًا أو تخاريف. المبنى بوضوحه وتفاصيله وملمسه و... و... وشكله الذي بدأ يتبخر من مخيلتي.

قال لي شريف بجمود إنه لن يذهب للعمل. وهكذا بدون استحمام أو ذهاب لسكني أو تغيير ملابسي الملتصقة بي من يوم كامل، انطلقت خارجًا من شقته، هرولت على السلالم وخرجت من البناية. ورغم الإنهاك الشديد ركضت في الشارع ركض لص تطارده الشرطة. عبرت شارعًا إشارة سياراته خضراء وبالكاد قفزت للخلف متفاديًا سيارة كانت ستفتتني في مكاني. أخذت في التقافز في مكاني منتظرًا اخضرار إشارة المشاه والوقت يقتلني بحق. كان منظري غريبًا وسط تلك الماكينة المنتظمة التي يعرف كل أشخاصها المهندمين وجهتهم ضابطين مواعيدهم وسرعات تحركهم في روتين يومي صارم، حتى وصلت أخيرًا للبناية التي تقبع الشركة في طابقها التاسع. نظرة سريعة على الطابور اليومي الذي ينتظر المصعد في صبر أيوب ليركبوه على مجموعات، انطلقتُ بعدها فورًا على السلالم مثل «سنوسي» في

نهايات فيلم «هنا القاهرة».

دخلت الشركة أشعث أغبر لاهثًا غارقًا في العرق والقذارة. أصاب الهلع الحقيقي كل من رآني وأنا لا أتكلم. وأخيرًا وصلت مكتبي وفردت أوراقًا بيضاء وأمسكت بالأقلام.. وهيهات!

بدأت برسم الكتل العامة للبرج.. ولا شيء.. صمت.. فراغ!

انهمرت في النبش لأحرر يدي وأحاول استرجاع أي تفصيلة إضافية أنطلق منها في اجترار التصميم.. ولا شيء يحدث. ظنني الزملاء مجنونًا وأنا أقف هاتفًا مرارًا بحنق «يا نهار اسود»، قبل أن أركض من جديد إلى الخارج وذهبت إلى مكتبة قريبة، أصبت البائعة فيها بالرعب وأنا أطلب منها صلصالاً بأسرع ما يمكن. وأمام المكتبة على الرصيف جلست وأمسكت العجين الملون مُشكّلاً إياه، ولا شيء.. أكوّر أضغط أمط أُكتّل.. لا شيء.

عدت للسكن ونمت كالقتلى وذهبت للعمل متأخرًا في اليوم التالي. صرت أقل ميلاً للاسترسال في أي حديث من أي نوع، ولم تتوقف محاولاتي البائسة في استحضار التصميم الوليد الذي انصهر أمام عيني. وكانت العودة للأعمال الروتينية اليومية الخالية من أي إبداع، كانت عودة قاتلة، قررت أن أقضي عليها قبل أن تقضي هي عليّ.

قبضت أول راتب، ولم أشعر بذلك الشعور الذي وصفه كثيرون عن هذه الخبرة، بل بالعكس، شعرت أن هذا ثمن بخس مقابل التخلي عن الوطن والأهل والأصدقاء. ذكّرت نفسي بالهدف الأساسي لكل هذا، فأزّمني هذا أكثر وازداد قهري على تبخر المبنى كامل الكمال وانصهاره أمام عيني. ذهبت لتناول الغداء في مطعمي الوحيد، ولصدمتي لم أستسغ الطعام إطلاقا،

ولا المـكان، ولا المناضـد ولا النـادل ولا النظافـة العامـة! للدرجـة التـي كـدت أسـأل النـادل الـذي يعرفنـي جيـدًا عـما إذا كان هـذا بالفعـل مـا كنـت آكلـه يوميًا، وعـما إذا كان نفـس الطاهـي، لكنـي لم أسـأل. عرفـت بسـهولة أن الجـزء النمـروذ بداخـلي قـد تحـرك مـن منطلـق قـوة امتـلاك مبلـغ مـالي جيـد تلـك المـرة؛ قابليـة كل إنسـان للانضغـاط تُغذّيهـا عوامـل كثـيرة، أهمهـا غيـاب الإمكانيـات. دفعـت الاثنـي عـشرة درهـمًا عازمًـا ألا أعـود لهـذا المطعـم ثانيـة.

هاتفنـي أثنـاء خروجـي شريـف، ووصـف لي مكانـه في مطعـم كبـاب مـصري بجـوار مطعـم كـشري في منطقـة أغلبيتهـا الكاسـحة مـن المصريـين. عجبًـا! نتذمـر ونتأفـف ونـركل الحوائـط في الوطـن، وفـور الابتعـاد نبحـث عـن بعـض وعـن حيواتنـا بمجهـر ونسـعى جاهديـن لخلـق نسـخ منهـا! لكـن مـع احـترام النظـام والقوانـين تلـك المـرة، بالإضافـة للعمـل بـروح الانتحاريـين حفاظًـا عـلى الوظيفـة.

ذهبـت في عجلـة ومـا زلـت ممسـكًا بخيـوط الرؤيـا بأطـراف أظافـري، ناويًـا أن أطلـب مـن شريـف جلسـة ريفتاجـول جديـدة أغـوص فيهـا صـافي الدمـاغ في أعـماق نفـسي، لإعـادة استكشـاف تصميمـي الحلـم.

المنطقـة بالفعـل مصريـة، مـن أول أمتـار تطؤهـا تشـعر فيهـا بنسـمات واضحـة قادمـة مـن هنـاك. تباطـأت خطـواتي وبـدأت أتسـاءل لحظيًـا عـن سـبب مغـادرتي للوطـن الأصـلي مـن الأسـاس، قبـل أن أتذكـر كل شيء، والهـدف الكبـير الـذي بالـكاد لامسـته في المبنـى الـذي أطـارد تصميمـه. وصلـت، وعرّفنـي شريـف عـلى أصدقائـه، مضيفًـا بعـد اسـمي نعتًـا متهكـمًا «وبيحـب مـصر». تباينـت ردات أفعالهـم بـين ضحـك واسـتنكار. لا يؤلمنـي شيء قـدر

الجحـود والإنـكار، رغـم أننـي كنـت أفُوقهـم في هـذا منـذ أشـهر قليلـة. تجاهلـت كل هـذا ناويًـا أن تمـر الجلسـة السـخيفة وأطلـب مـرادي منفـردًا بشريـف، لكـن أحدهـم تظـرَّف وسـألني والضحـك يتطايـر مـن فمـه القـذر:

- إيـه واحشـك أكـتر بقـى؟ الزبالـة ولا وسـاخة النـاس؟ هاهاهاهـاااا

ملعـون أبـو الريفتاجـول لأبـو المبنـى، ولـو مؤقتًـا. فـرددت مثبّتًـا عينـي في عينـه:

- لأ خالص، دول مش واحشني ما دام شفتك!

صُعـق بوضـوح وتكهـرب الجـو كلـه، وبعـد أن تجمـد لثـوانٍ وأنـا أحـدق فيـه جاهـزًا لأي ردة فعـل، نهـض في توتـر كبـير صائحًـا إنـه لـولا أن الشرطـة تقبـض عـلى طـرفيّ أي شـجار وترحّلهـم معًـا دون اسـتيضاحات، لـولا هـذا لـكان فَعَـل وفَعَـل وكلامًـا فارغًـا مـن هـذا النـوع. ثـم رمـى بعـض الدراهـم عـلى الطاولـة ومغـادرًا صـاح في شريـف أن يختـار أصدقـاءه بعنايـة. قـررت أن أدهسـه أكـثر فنهضـت مسرعًـا وراءه فانتفـض الجميـع ليمنعـوني كأنهـم يمنعـوني مـن الانتحـار، وهـم يرجّـوني بعنـف لأسـتفيق، صائحـين بهلـع «هتترحـل يـا غبـي إنـت وهـو! هتترحلـوا!». أمـا البائـس فقـد زاد مـن سرعـة مغادرتـه خوفًـا مـن التوقيـف مـن الشرطـة، وهـو يسـبني سـبابًا مـن نوعيـة «مـاشي يـا حيـوان يـا رمـة يـا معفـن»، وهـو تهديـد أثبـت فراغـه هـو نفسـه بهروبـه منـي. أضحكتنـي بحـق تلـك الشـتائم الطفوليـة التـي لا يجـرؤ عـلى التفـوُّه بمـا هـو أقـسى منهـا، فانطلقـتُ أنـا متنـاولاً آبـاءه وأجـداده بأقـذع الألفـاظ، ومـن حـولي يكتمـون فمـي بـكل مـا اسـتطاعوا مـن قـوة.

زادني ذلك الشجار السريع حنينًا، بعد أن عشت دقائق متحررًا منطلقًا في ردة فعل طبيعية غير محسوبة بالورقة والقلم. عاد الاتزان للمكان وجلسنا من جديد، وإن صارت هذه جدلية كبرى فُتحت في كل طاولات المطعم المقهى ذلك. كان شريف غاضبًا مني بشدة، بينما يحاول أصدقاؤه استتابتي وتوعيتي كوني في بدايات الغربة وتحت ضغط سيزول مع الوقت، وأمسكتْ نارُ الجدل فينا. كلهم أصحاب فكرة، وأنا وحدي في تلك الطاولة صاحب فكرة مضادة تمامًا:

- يعني بذمتك المرور والنظام اللي هنا مش عاجبينك؟!

- روعة بس مش بتوعي ولا بتوعكم.

- والنضافة والشوارع والعمارات؟

- مش هلحسهم أكيد.. زائد إن إنتو اللي بترموا زبالة عندنا ومبترموش عقب سيجارة هنا في الشارع.

- يا عم هنا حقوق الإنسان بجد.

- بأمارة باسبورك اللي مش معاك وعشان تاخده تسافر بيه بلدك أو أي مكان إنت عارف بتعمل إيه عشان تتجرأ وتطلبه، ويا تاخده يا متاخدوش، حسب مزاج مديرك. أرباب زي ما بتسموه يا أحرار.

- إنت عايز تقارن الفلوس اللي بتاخدها هنا باللي بتاخده في مصر؟

- قارن معاها الأسعار يا خفيف.

- أيوة بس بيفضلك في الآخر فلوس تحوشها برضه.

- ده بعـد مـا حضرتـك اسـتغنيت عـن أول أسـباب آدميتـك وعشـت في سـكن مشـترك بحـمام مشـترك وغسـالة مشـتركة. إنـت متقـدرش أساسًـا تفكـر تسـكن في اسـتوديو عشريـن مـتر لوحـدك.

- ما المرتب هيزيد سنة بعد سنة.

- وتتجوز وتضطر تأجر شقة، وإنت فاهم ده يعني إيه.

- ما إنت هتزيد تاني.

- تكون خلفت.

بـدأ أحدهـم في التذبـذب سـاردًا قصصًـا عـن أشـخاص يعرفهـم جـاؤوا بغـرض البقـاء لثـلاث سـنوات، وهـا هـم قضـوا ثلاثـين عامًـا. بـدأت أربي زبائـن. فصـاح آخـر:

- يـا عـم أهـو قـضى عمـره في مـكان نضيـف عـلى الأقـل، وعيّـش ولاده أحسـن عيشـة.

- لغايـة مـا يقطـع بنزيـن، أول مـا يوقـف شـغل لأي سـبب، ملـوش مـكان هنـا لدقيقتـين. سـاعتها يرجـع بلـده حاسـس إنـه غريـب فيهـا وولاده يحسـوا إنهـم في خـازوق العمـر الأبـدي.

- بلاش.. عايز تقارن بين نوعية الشغل هنا وهناك؟!

سرحـت متذكـرًا مـا يتعلـق بتلـك النقطـة التـي لا يمكـن الـرد عليهـا، وأطلـت الصمـت، فانقـض عـليّ صاحـب السـؤال الـذي لا أعـرف اسـمه، منتشـيًا بنـصره، مسـتكملاً:

- بـص.. كل الـكلام الـلي فـات محـل جـدل، والرأيـين صـح في الآخـر، إنمـا افتكـر دايمًـا نظريـة المثلـث أبـو ضلعـين.

- دي إيه دي؟

وضع يده على صدره بفخر وقال ضاحكًا:

- دي نظريـة أنـا الـلي حاططهـا.. بـص.. هـما تـلات عوامـل، تـلات أضـلاع لمثلـث الحيـاة، لازم تشـطب واحـد وتختـار اتنـين.

- مش فاهم حاجة!

- الوطن.. الهندسة.. الفلوس.

ضاقت أنفاسي وأمرته:

- كمّل.

- عايـز تشـتغل في الهندسـة وتاخـد فلـوس كويسـة، سـيب بلـدك وتعـالى هنـا. عايـز تشـتغل مهنـدس في بلـدك انـسى الفلـوس. عايـز تشـتغل في بلـدك وتاخـد فلـوس ارمـي الهندسـة. اختـار براحتـك يـا كينـج.

وانفجر هو ضاحكًا وانقبض قلبي.

-١٥-

- أنا أبقى رِمَّة لو عَرّفتك على حد من معارفي تاني.

انفجر بهذه الجملة شريف في وجهي، فرددت ضاحكًا:

- لو سمحت متقولش كلمة رمة.. قول يا حمار!

واستطردتُ مستنكرًا:

- ما تشتموا شتايم عِدلة يا جدعان، إنتم فيه هسهس في نافوخكم اسمه الترحيل خلاكم مؤدبين كده ليه؟! يا أخي يا ريتك إنت وهما تتعاملوا بربع ولا حتى خُمس الأدب ده في بلدنا يا...

وانطلقتُ في وابل من الشتائم المُركَّبة الجميلة ذات الأحرف المتناغمة تناغمًا يفوح قسوة. سكت لثوانٍ ثم رد بهدوء:

- حاضر.. وماله.. ماشي يا ابن الـ...

وانطلق منفثًا عن غضبه مسترجعًا قاموس بذاءاته المفضل، فانفجرنا ضاحكين وسألته:

- إيه رأيك؟ مش أحسن؟ يا رمة؟ يا رمة يا ابن الـ...

استرسلنا قليلاً ثم دخلت في المفيد.

- ريفتاجول يا شريف!

- يا عم ده دماغه فاضية أوي! مبحبش أفضل مفنجل عيني كده وخلاص، لا عارف أنام ولا فيه ريحة الدماغ، بصرف النظر

يعني عن الدولاب اللي إنت حضنته المرة اللي فاتت يا أبو دماغ قش. أنا هاخده لما يكون ورايا تطبيقة في الشغل وخلاص.

انقبض قلبي، فضغطت عليه ممسكًا بكارت أن هذا هو المتاح فقط هنا من المخدرات تلك الفترة، على حد قوله. لم يكن متشبثًا بالرفض على أي حال، فوافق بعد ضغط بسيط، شرط أن يكون هذا في إجازة نهاية الأسبوع حتى ينام صباحًا ولا يضطر إلى الذهاب للعمل. جاء الميعاد في الاستوديو خاصته وقد حضر كل منا عدته. تسلح هو بثلاثية Lord Of The Rings، واستهجن مظهري وهو يفتح الباب، ليجدني مُسلَّحًا بلوحات بيضاء بمقاسات مختلفة، وبلوك نوت بيضاء، وأقلام كثيرة بثخانات مختلفة، وعلبة ألوان وعلبتي صلصال، وفرخين فوم ولاصق، وكانزات ريد بول.

- إيييييه دااااه القرف ده؟! إنت جاي تشتغل في الويك إند؟! وعندي أنا؟! الله ينكد عليك كمان وكمان!

كنت في حالة إثارة عارمة؛ تجاهلته ولم أرد وأنا أتخذ الركن الوحيد الممكن، وانهمكت أنصب عدتي وأجهز الورشة، وهو في حالة ذهول واشمئزاز، وقال:

- مع إن مكانش باين عليك إنك منهم، بس أنا مليش دعوة، أنا هعيش مع الهوبيت والأورك، وعيش إنت مع الشغل يا ابن الكئيبة. بس لو اتهورت وقولتلي تعالى ساعد، أقسم بالله ما هتقعد دقيقة واحدة هنا بعدها.

بالكاد كنت أسمعه وأنا أجر كومدينو صغيرًا لكنه يفي بغرض استخدامه كمكتب، وعدلت من وضع المقعد الوثير

ورصصت اللوحات البيضاء والأفرخ والأقلام والصلصال حولي حتى انتهيت، ورص هو الديفيديهات وأولج الأول في الجهاز، وخفض الإضاءة ونقلت أنا أباجورة حديثة كبيرة لتصب الضوء من فوق رأسي.

حبايتين.. لا بأس بالثالثة.

كوب ماء.

ازدردت ثم غصت في الفوتيه، وأنا مترقب والحماس يغمرني.

انتظرت.

صبرت.

انتظرت.

صبرت.

تنفست.

تلفّتّ.

تنهدت.

تأملت.

اعتدلت.

مِلت.

اعتدلت.

تنحنحت.

هرشت.

دندنت.

سكتّ.

لا شيء عـلى الإطـلاق! كأننـي في السـاعة الواحـدة ظهـرًا في يـوم ثلاثـاء مـا!

نظـرت نحـو شريـف وكان يراقـب الفيلـم سـاكنًا كتمثـال. حاولـت أن أناديـه فاحتبـس صـوتي، بالـكاد فتحـت فمـي. ارتبكـت وحاولـت النهـوض ولم تطعنـي أي عضلـة، التصقـت بالمقعـد كأننـا صُنعنـا معًا مـن نفـس جـذع الشـجرة. لم أدر هـل أجـزع أم أترقـب الحالـة. كان ذهنـي في حالـة يقظـة وصفـاء كاملـين كالمـرة السـابقة، لكنـي في واقـع الأمـر مـا زلـت هنـا. صـار الوضـع ممـلاً ومرعبًـا معًـا. وشريف عـلى وضعـه لا يتحـرك. لا أعلـم كـم مـن الوقـت مـر هكـذا حتـى بـدأتْ مجـددًا تنميلـة واضحـة تكسـو جسـدي مـن كعبـي، آخـذة في الانتشـار صعـودًا، حتـى احتلـت كل سـنتيمتر منـي، واشـتدت قوتهـا، فشـعرت أننـي أتحلـل.

هيا بنا أم ماذا؟

ريد بول.

ولم يحدث أي شيء!

اللعنة! بل اللعنات جميعها!

قـررت أن أصـارع هـذا الغبـاء الـذي يحـدث، فجاهـدت أن أنـزع يـدي ولم تسـتجب. سـحبت شـهيقًا ولا أعمـق، ثـم فجرتـه في صرخـة شـعرت بهـا تتكـون بجـوفي ككريّـة صغـيرة متوهجـة، وتحركَـتْ ببـطء شـديد لكـن بعـزم في مسـار منحنـي متصاعـد متجهًـا لحلقومـي، وهـي تتفـادى كـرات الـدم وطوفـان السـوائل حتـى

تضخمتْ عندما صارت في قصبتي الهوائية ثم حلقي، وملأت فمي، وقبل أن تنفجر خروجًا أظلم كل شيء.

وشعرت بحيوية مكتملة وسط هذا الظلام الدامس. أسود سواد ممكن، لكني صرت خفيفًا من جديد قادرًا على الحركة. ذلك الصفاء الذهني وتلك الحيوية والطاقة. ذهبت هناك أخيرًا، لكن يبقى أن يضيء أحدهم أي نور.

أخذت خطوة حذرة فسمعت صوت حذائي على تلك الأرضية الخشبية، ذلك الصوت القدري الذي ينبئ عن أن شيئًا مهولاً سيحدث. وأخذت خطوة أخرى.

طك.

...

طك.

...

طك.. طك.. طك.. طك.

ولا يزال السواد محيطًا.

بدأت أسرع الخطوات قليلاً، وأنا أرجو أن يظهر مبناي أو أصطدم به وسأعرفه على الفور.

طك.. طك.. طك.. طك.. طك.. سبليش!

توقفت، ونظرت لقدميَّ ولم أرَ شيئًا إلا السواد المُحكم، لكني أثق أني على أرض رطبة، تباطأتْ خطواتي وسرت بحذر، الأرض مبتلة جدًا لا شك في هذا. أوغلت برفق وفردت ذراعيَّ اللتين لا أراهما، بغيًا للتوازن. فتحول الصوت وصارت حركة قدميّ

اللتين لا أراهما أيضًا أصعب. ارتفع منسوب المياه شبرين على الأقل، فتوقفت جزعًا. حاولت التراجع قليلاً ولم تتغير حقيقة أن المياه الثقيلة تعيق حقًا. مرتجفًا انحنيت فاردًا كفيّ لأدرك المنسوب الفعلي لهذه المهزلة، فاصطدمت بحقيقة مرعبة، أن وجهي بمجرد الانحناء قد صار مغمورًا في المياه التي ارتفعت سريعًا حتى كتفي.

أصابني رعب من ليس له في أمره من شيء ويلاقي هَولاً. أصبحت على أطراف أصابع قدميّ اللتين بكل تأكيد لا أراهما، ورفعت ذقني محافظًا على ثقوب أنفي في الهواء لحين تغير الأمور، فتغيرت للأسوأ، هاج البحر الأسود، وتلاطمت أمواجه فجأة، لأتحول أنا إلى ما يشبه قاربًا وسط تسونامي، تلاحقت الأمواج تتقاذفني وأصواتها المرعبة تغطي على صوت صراخي وتخفيه، فقدت التمييز بين لحظات طيراني قذفًا من موجة، ولحظات غمري من موجة أخرى، ثم سقطت في دوامة عظمى عملاقة. دوار مميت وسط كل هذا السواد وتلك الأصوات. الأسوأ من السقوط في تلك الأهوال هو ألا تكون تراها وهي تحدث فعليًا ولا تدرك هل أنت رأسًا على عقب أم عقبًا على رأس، أم لك رأس بالأساس أم لا.

استسلمت تمامًا للدوران المتسارع لتلك الدوامة العظيمة كإحدى ألعاب الملاهي، لكن دون أدنى استمتاع. وقبل أن أغمض عينيّ للأبد، لمحت نقطة مضيئة أخيرًا على مرمى البصر، قبل أن أستمر في الدوران الإجباري، لويت رأسي نحوها لتبدأ في التشكل والوضوح. رأيته.. مبناي الذي يبدو أنيقًا مهيبًا جميلاً حتى وهو ما زال في طور التشكيل، ورأيتني، هناك أمامه، منهمكًا. اتسعت الدوامة التي لم أعد أعرف هل هي صديق أم عدو،

لأقترب أثناء ذلك الدوران المجنون من الهدف الذي أتى بي إلى هذه اللعنة، بالفعل.. ها هو المبنى أثناء تكوينه ونحته، وها أنا ذا أمامه أطير وأصعد وأهبط وأنحت وأضغط وأمط وأرسم وأوزع الكتل والإضاءات والألوان عليه. أدور مبتعدًا. أحاول أن أنزع نفسي من هذا لأحاول السباحة نحو هذا المبنى وذلك الأنا. أقترب وأنا أرفس وألطم المياه، تلقيني موجة بعيدًا جدًا، أقاوم بجنون أكبر وأدفع بكل أطرافي، أقترب من مبناي وأحاول أن أحفظ شكله المتألق من جديد، لكنه بعد غير مكتمل الملامح. تسحلني الدوامة وأقاوم.

أبتعد وأمد ذراعي عن آخرها، أقترب وتغمرني المياه، تقذفني موجة في الهواء وأتلفَّت يمينًا ويسارًا بحثًا، حتى جاءت الدوامة العظمى التي لا تبقي ولا تذر، فابتلعتْ كل هذه الأمواج والدوامات والسواد وأنا، لنهوي جميعًا بسرعة صاروخية نحو مركزها.

فتحت عينيَّ بغتة لأجدني على الأرض في استوديو شريف، وقلبي يخفق ليكاد يقفز من فمي، وعرق منهمر، أو بقايا السيل هي.

هرعت بقوى خائرة إلى اللوحات البيضاء وأمسكت قلمًا بيد راجفة كساق ضفدع فاراداي، ووضعت القلم.

ولا خط.. ولا كتلة.. ولا شكل.. ولا فكرة.. ولا أمل.. ولا شيء.

ولا أي شيء!

-١٦-

قبل أن نرى ماذا حدث لدى الأخين، لنر كيف مرت أشهر على «يون» المسكينة التي لا تدري ماذا فعلت ليحدث لها كل هذا.

لم ينس «توبيا» أبدًا أن «يون» كانت هي السبب الوحيد الذي دفعه لارتكاب خطيئة عمره، وقتله لصديقه بالحجر. قضى الأيام والشهور زائغ النظرات محيلاً حياتها إلى جحيم كيفما استطاع. لم يُعطها من أي صيد، لم يسمح لها بالمبيت في الكهف الدافئ، أذاقها من الضرب ألوانًا، خصوصًا أثناء لقائه بها داخل الغابة. كانت اللقاءات حينها لا تتعدى كونها إيلاجًا، والإبقاء على تلك الحال حتى ينتهي. هذا في اللقاءات العادية، أما مع «يون» فكان يصاحب لحظات الجماع تلك كَمًّا سخيًا من الصفعات واللكمات، هذا بالإضافة لدخول الغابة والخروج منها مجرورة مشدودة من شعرها. لم تصرخ ولم تبكِ في أي يوم؛ هي رفاهية ظنت أنها لا تمتلكها، فقط ارتجاف وانكماش ودموع تهرب منسابة من وقت لآخر. كان أكلها يعتمد على نباتات وثمار تقطفها خلسة وتأكلها في عجالة، وكان أنيسها الوحيد حيوان كثيف الفرو يشبه الجدي، لكنه أبيض الفرو أزرق العين، كانت تقاسمه ما تحصَّلت عليه من ثمار، وما تمتلكه من وقت فراغ تلاعبه فيه، تارة بالحجارة وتارة بالركض والمطاردات الوهمية، كانت لحظاتها معه هي ما عرَّفها أن هذا العالم به شيء يُدعى ضحكًا، وفي أوقات البرد كانت فروته هي

مصـدر الـدفء والألفـة. كل هـذا كان يحـدث بينـما «ديـس» لا تنـسى إهانـة العمـر؛ «توبيـا» فضّـل «يـون» عنـي. «توبيـا» قتـل صديقـه مـن أجـل «يـون». «توبيـا» أثنـاء لقاءاتـه بـ«ديـس» في الغابـة يظـل ينظـر خارجهـا نحـو مـكان «يـون». «توبيـا» لعـين، لكنـه قـوي. «يـون» لعينـة وتسـتحق العقـاب.

بينـما هنـاك لم يرتـح هـؤلاء القـوم أقويـاء النفـس للدخيـل، لكنهـم لم يلفظـوه، كان يومهـم كثيفًـا بالواجبـات التـي تم تقسـيمها بينهـم جميعًـا، وكان يـشرف عليهـم كبيرهـم مـارًّا عليهـم جميعًـا أثنـاء العمـل، يـوزع الأوامـر، ويشـجع هـذا، ويربـت عـلى تلـك. كانـت واجباتهـم جميعًـا تصـب في خدمـة حياتهـم ومكانهـم، إقامـة الأكـواخ التـي يتخذونهـا سُـكنى، حـرث الأرض وبذرهـا وحصـاد الثـمار، نقـل الميـاه لهـم وللمزروعـات مـن تلـك البـئر، وكانـت النسـاء مسـؤولة عـن أعـمال النظافـة العامـة وتربيـة الأطفـال وتعليمهـم. أمـا الأطفـال فـكان دورهـم هـو الـدور المخصـص لهـم مـن بـدء الخليقـة حتـى الآن، نـشر البهجـة وجلـب الشـقاء معًـا. كانـت تلـك القبيلـة نموذجًـا للسـلام ومثـالاً في الحيـاة المجـردة.

لم يكـن هـذا فقـط مـا أثـار اهتـمام الأخ الـذي دخـل العـالم قبـل أخيـه، بـل كونهـم جميعًـا عصيـين عليـه، لم يجـد مدخـلاً ممكنًـا لأي منهـم. حولهـم هالـة لا يرونهـا لكنـه يراهـا، هالـة سـاطعة تخـبره أنهـم أقـوى. لكـن نجاحاتـه المتراكمـة خلّفـت داخلـه غـرورًا منعـه مـن الاسـتمرار في الاستكشـاف في الأرض، وتطويـع مـن ليـس لديهـم هـالات مثـل تلكـم. سـيجد لهـم مدخـلاً. وقـرر أن يجـرب حيلتـه السـابقة التـي أسـفرت عـن قتـل الرجـل لصديقـه.

أمـا أخـوه الـذي وجـد هـؤلاء القـوم النادمـين عـلى أشـياء مـا، فقـد كان كمـن وجـد قطـع البـازل التـي تنتظـره لينضـم ويُكمِـل

الصـورة. وقفـوا جميعًـا واحـدًا تلـو الآخـر، نظـروا إليـه بإجـلال وانبهـار كأنـه المُخلِّـص المنتظـر. تجمَّعـوا في تكتـل بـشري شـغوف، وأخـذوا في الاقـتراب منـه ببـطء فاغـرة أفواههـم. سـبح كالطيـف مـن فوقهـم وهـم يتابعونـه، تحـرك حولهـم في الهـواء في دائـرة واسـعة آخـذة في التناقـص، وهـم يلـوون الـرؤوس والأعنـاق متابعـة لـه ويـدورون حـول أنفسـهم ببـطء، إلى أن صـار في مجالهـم الفعـلي وأنفاسـهم آخـذة في التسـارع. وضـع كفـه عـلى رأس أحدهـم فكانـا كمـن صُعِقـا معًـا بالـبرق. رأى بلمسـته تلـك واختـبر جميـع مـا مـر بـه ذلـك الرجـل في حياتـه، مـرت أمامـه كشريـط في لحظـة، شـعر بآلامـه ومخاوفـه، ولمـس صدقـه في النـدم مـن كل تلـك الخطايـا التـي اقترفهـا. أمـا الرجـل فقـد تشـنج بشـدة وأخـذ في الارتجـاف كالمحمـوم بعينـين هـرب بؤبؤاهـما، وهـو يصـدر همهـمات متلاحقـة غـير مفهومـة، فتراجـع الحشـد متكتـلاً خطـوات للـوراء وازدادوا توتـرًا، وارتمـى الرجـل أرضًـا فيـما يشـبه نوبـة صرع وهـو يـدور حـول نفسـه كقطعـة ضخمـة مـن الخشـب ملعونـة وحدهـا بزلـزال ٨ ريختـر. أرغـى وأزبـد ولم يتوقـف، فتقـدم رجـل آخـر مـن الحشـد مرتجفًـا، اقـترب مـن صاحـب القـوة هـذا وهـو يرتعـد إلى أن صـار أمامـه تمامًـا فأحنـى رأسـه قليـلاً ليلمسـها، وتتكـرر الكَـرَّة ويصبـح لدينـا قطعتـان خشـبيتان ترتجفـان.

و«يـون» تمـارس روتينهـا اليومـي في تلقـي العـذاب والإهانـة، والبحـث عـن ثمـار وجمعهـا، ومشـاركة أكلهـا مـع الجـدي الصديـق، الـذي أصابهـا طـرف قرنـه أثنـاء تربيتهـا عليـه وانتفاضـة مفاجئـة مـن رأسـه للخلـف، أصابهـا في يدهـا التـي نزفـت دمًـا أثـار هلعهـا بعـد أن تذكـرت حـادث القتـل، الـذي لا تـدرك حتـى الآن أنـه كان رغبـة فيهـا. لـو عرفـت للعنـت جمالهـا أو شـوَّهته بنفسـها، لكنهـا

لا تعـرف مـا هـو الجـمال أصـلاً. «ديـس» التـي تراقبهـا مـن وراء الأشـجار تذكـرت أيضًـا ذلـك اليـوم المشـؤوم عندمـا رأت الدمـاء. ذلـك اليـوم الأسـود الـذي كُتبـت فيـه شـهادة أنهـا الأقبـح. تذكـرت وغضبـت وانفجـرت في صرخـة هـادرة وهـي تجـري نحـو «يـون» وتنقـضُّ عليهـا وتكيـل لهـا الـضرب والعـض بسـخاء، بعـد أن فـر الجـدي هاربًـا.

-١٧-

منذ ذلك اليوم ومنذ نزولي من استوديو شريف على سلالم ستة وعشرين طابقًا، وقد مرت أيام فقدت فيها أي إحساس فعلي بالزمن والأشياء، وأصبح الجميع ينظرون إليَّ كشخص غريب الأطوار أقرب لمجنون، ليس فقط بسبب لحيتي التي لم أعد أحلقها واستطالتها التي تتسارع، ولا بسبب احمرار عينيَّ كالطماطم واسوداد الجلد أسفلهما، ولكن أيضًا بسبب انقطاعي شبه الدائم عن أي أحاديث إلا في أضيق الحدود وبأقل عدد ممكن من الكلمات، حتى مع شريف نفسه الذي أصبح قليل الكلام جدًا هو الآخر. انهمكت بشدة في الأعمال الرتيبة التي أُكلَّف بها، رتابة مملة خانقة سمجة، لم ينافسها في إزعاجي إلا ذلك الصداع الذي صار رفيقًا حقيرًا.

صرت أقضي أوقاتًا مهولة في المكتب، ما شجع المهندس رفيق على تحميلي بأعمال كثيفة لا تنتهي، وهو يتحدث بالفصحى ما زال. كم من المرات يوقظني الساعي أول من يحضر للعمل، من نومي على مكتبي أو مقعدين متقابلين، فلا أفعل أي شيء إلا أن أطلب منه قهوة دوبل وأعاود العمل على الكمبيوتر اللعين من دون غسل وجهي حتى. كل هذا وأنا في انتظار جلب شريف لدفعة ريفتاجول جديدة بعد أن أخبرني أنه غير متاح حاليًا، وأنا لا أعرف مصدره عمومًا. كنت في ارتياب كبير حول حقيقة رغبتي في تكرار تلك التجربة من جديد، فمن ناحية قد اقترب بشدة ميعاد تسليم المشاركات لمسابقة البرج،

مبتغاي الرئيسي، والفريق المُكلَّف كان شديد الانشغال به، وإن كان المنتَج عاديًا خاليًا من أي إبهار، ومن ناحية أخرى فأنا لم أعد أضمن ما سيحدث داخل تلك الحالة بعد ابتلاع الأقراص. كانت المرة الأولى مبهرة وكادت الثانية أن تقتلني بسكتة قلبية.

قضيت أيامي فاقدًا لأي شهية، هائمًا متجولاً في أي مكان، وثمة شيء لا أستطيع وصفه تغير في حواسي، يحدث أحيانًا دون تحكم مني، ذلك الذي لا أعرف كيف أشرحه. ما يحدث عشوائيًا هو تركيز الإدراك على عنصر مع خفض إدراك باقي العناصر أو إلغاء بعضها. صعب أن أصف.

هو يشبه ذلك التأثير الذي يضعه المخرجون في بعض الأفلام عندما تغيب كل الصورة أو تتحول لأبيض وأسود إلا من شخص بعينه أو شيء ما، يظل بألوانه وكامل وضوحه. أو ذلك التأثير الصوتي السمعي عندما تخفت بشدة جميع الأصوات المحيطة إلا من صوت بعينه يظل واضحًا مسيطرًا في مركز الإدراك. ناهيك باللمس، ضبطني البعض وأنا أملِّس بيدي ببطء على سطح المكتب الخشبي أو دهان أملس أو قطيفة الفوتيه أو درابزين معدني، كنت أشعر بجزيئاتها ومسامها عندما يصيبني ذلك الإدراك الفائق. لم يمتعني لكنه كان غريبًا، وبالتأكيد أثار دهشة وذهول مكتومين لدى كل من يراني هكذا، ولم أجتهد عمومًا في السيطرة على هذا أو كتمان فعله.

فتور عام وشامل أصبح رفيقًا في كل خطوة وكل نَفَس.

تارة أسأل نفسي عن جدوى كل هذا، وتارة أؤمن بجدوى القتال هذا، وتارة أُفكر أن أحذف ضلع الأموال من مثلث ذلك الشخص صاحب النظرية الغريبة، وتارات أخرى كثيرة

أنساب في الأمور كجمل في صحراء.

وفي إحدى الراحات بين دواميّ العمل اليومي، كنت أتجوَّل في أحد المراكز التجارية لتنشط حاسة الإدراك نحو شخص بعينه لا أعرفه، كالعادة الجديدة رأيته هو مركز الصورة وكل ما حوله أبيض وأسود باهت التفاصيل، كان رجلاً في أواخر الثلاثينيات في محل لعب أطفال. لا يحتاج الأمر أي فراسة لاستنتاج أن إجازته السنوية قاربت المجيء ويقوم بجولة شراء الهدايا لأحبائه الذين لم يروه منذ عام، ولن يروه لعام آخر بعد إجازته القصيرة. كان في المحل جسديًا وفي موطنه نفسيًا وهو يتخيل أطفاله وهم يستقبلون تلك الهدايا، تلك الابتسامة الممتلئة بحزن الافتقاد وسعادة استحضاره لردات أفعالهم المتوقعة حال كشف الستار عن هذه اللعب. كان فعليًا في عالم آخر، أفاق منه ومن ابتساماته الشاردة وهو يلتفت إليَّ متعجبا من اقترابي منه مُحملقًا هكذا. كدت أسأله هو أيضًا عن جدوى كل هذا، ثم كدت أشرح له نظرية المثلث ذي الضلعين مواسيًا، ثم كدت أشاركه اختيار الألعاب لأطفاله، ثم تركته وانصرفت دون كلمات، والغصة تخنقني.

قضيت الدوام التالي صامتًا، أعني صامتًا عن الإتيان بأي فعل، جالسًا فقط أمام شاشة الكمبيوتر محملقًا في صورة كثبان سطح المكتب الخضراء والسحب في سمائها الزرقاء. غادرت عند انتهاء مواعيد العمل على غير العادة، وصلت بيتي، أعني السكن. الفارق عملاق بين الكلمتين. لترتكز عيناي على شاب في مثل سني جالسًا على سلالم مدخل البناية ممسكًا بموبايله محملقًا فيه، خمَّنت أن سكنه بالأعلى يكتظ بالشباب وهذا هو مكانه الوحيد الذي يمكن أن يخلو فيه لنفسه وأفكاره

وذكرياته. كان الصوت رنانًا في ذهني ذلك الصادر من موبايله، كان فيديو له يلعب مع طفلة ضحكاتها مبهجة صادقة ككل الأطفال، لعلّها ابنة أخيه أو أخته أو أيًا كان. كان يفتقد أوقاته معها لكنه نسي كل هذا بعد اندماجه في الفيديو، تلك الابتسامة المريرة ذاتها. ثم التفت إليَّ بغتة وأنا متجمد على منتصف درجات السلم، كدت أحييه وأنصرف لكنه سارع بمسح دمعتين منهمرتين، فأصاب الشللُ لساني واستمريت في الصعود.

لم أنم ليلتها، صوت أنفاسي ودقات قلبي وعينان نصف مغلقتين ناظرتين إلى سقف سمج حتى رن المنبه بعد ساعات طوال، نهضت واهنًا كأنني في الثمانين من عمري، جرجرت قدميّ للحمام لأرى في المرآة هيئة مُريعة. قررت أن ذهابي للعمل يومها سيصاحبه قرار يغير دفة الأمور، أو يصححها، ولكن بعد استحمام يخفف من هول تلك الهيئة.

مشوَّش الذهن وصلت مكتبي، في انتظار لحظة مناسبة لأتحدث مع المهندس رفيق، وجاءتنا إخبارية أن الجميع مدعوون لاجتماع بعد ساعة.

حضر كل الموجودين، ودون مقدمات دخل رفيق في الموضوع بالإنجليزية:

- بخصوص مسابقة البرج.. تم تأجيل ميعاد التسليم لأسبوع إضافي، أي أن أمامنا اثني عشر يومًا من الآن، وتم السماح لكل مكتب من المشتركين أن يساهم بمشروعين اثنين بدلاً من واحد فقط. الفريق الذي يعمل في المسابقة بالفعل تحت إمرتي سيستمر كما هو، وعلى من يرغب منكم في المشاركة سواء فرادى أو مجموعات، أمامه مُهلة خمسة أيام لتجهيز الفكرة

والاسكتشات المبدئية وعرضها عليّ لأختار أفضلها، على أن يكون الفرد أو الفريق صاحب المشروع هو المسؤول مسؤولية كاملة عن تجهيز كل مطالب المسابقة قبل الميعاد بيوم كامل. ولا داعٍ لذكر أن الأعمال الأساسية الجارية لا مجال لتأجيلها أو إهمالها.

لا بد أنك تمازحني!

رصاصة ذهبية أخيرة دُسّت في يدي، فتحت ساقية مسدسي ووضعتها بحرص وأغلقتها ودوّرتها بقوة ثم شددت الأجزاء، ليصدر ذلك الصوت الذي نشّط كل انتباهي وحواسي، ثم رفعت فوهة المسدس للسقف، ونظرت نحو شريف غير المهتم ولكنه فهم ما أريد بالطبع، فابتسم وهز رأسه أن نعم.

لديه المفتاح.

لديه ريفتا!

سأنقضّ بكل حواسي على المبنى تلك المرة!

وفي وسط إعصار الأفكار التي كنت أحاول ترتيبها، جاءني مندوب العلاقات العامة مُدعيًا أنه مكفهر بتمثيل رديء، وقال لي مباشرة إن إجراءات الإقامة لم تكتمل بعد، بينما صلاحية تأشيرتي ستنتهي بعد غد. انتابني مزيج غريب من الجَزَع والسعادة، قبل أن يكمل هو أن الموضوع بسيط ويستلزم فقط خروجي من الإمارات واستقبال فيزا جديدة ثم العودة من جديد.

مصر!

ثم استطرد أن الخروج ليوم واحد يكفي قانونًا، وأن شركات كثيرة تنظم رحلة اليوم الواحد تلك لجزيرتين قريبتين في إيران

تدعيـان كيـش وقِشِـم بسـعر مقبـول.

كـدت أنصهـر حينهـا مـن كـثرة التفكـير والمقارنـة بـين الوجهتـين، إمـا أن أعـود لموطنـي الـذي أحـترق شـوقًا إليـه، لكـن بـأي حـال من الأحـوال لـن أقـضي فيـه أقـل مـن أسـبوعين عـلى أضعـف تقديـر، وتطـير فرصـة تصميـم ناطحـة السـحاب التـي تلمسـها أنامـلي بالفعـل، أو أقـوم بتلـك الرحلـة السريعـة محافظًـا عـلى آمـال الفرصـة، ومُضحِّيًـا بزيـارة العـلاج الروحـي لبلـدي التـي أحتاجهـا بحـق. فكّـرت كثـيرًا ثـم قـررت بعقـلي، بينـما ردّ قلبـي بقطـرات سـاخنة يسـمونها دموعًـا، منحـدرة عـلى وجهـي لأول مـرة منـذ زمـن لا أذكـره.

-١٨-

بمشاعر لا يمكن وصفها أوصلني شريف للمطار، وبرأس تسحقه مطرقة وسندان حديديان أومأت له وهو يسترسل في مزاح ما. على باب المطار قبل أن يتركني هنأني بأنني على الأقل سأحصل على ثلاثة أيام «أريّح فيها دماغي»، لم أسأله مَمَ أريحها بالضبط، لكن أخبرته أن ذلك المندوب في الشركة أخبرني أن الفيزا ستُرسَل بعد يومين على الأكثر، فبدت الدهشة على وجهه الذي ينافس وجهي في اصفرار اللون، وقال دون أن يجزم بأن أسرع حالة شاهدها استغرقت أربعة أيام وليس حتى ثلاثة كما أخبرني من دقيقة.

انقبض قلبي أكثر وودعته ودخلت المطار وأنهيت الإجراءات، حتى وصلت صالة انتظار الطائرة.

لا تعتبرني فظًّا أرجوك، راعِ أن لديّ دقائق وسأترك عالمك بعدها، دعني أخبرك دون تجميل أن كل رُكَّاب تلك الرحلة كانوا أفقر مساكين في الأرض، هؤلاء هم من عانقوا البؤس فور مولدهم وترعرعوا معًا، هؤلاء هم عديمو الاختيارات والقدرات من قادتهم الظروف إلى هنا وليس لهم أي بدائل هناك في بلادهم، أو هكذا ظنوا، هؤلاء هم لاجئو لقمة العيش مهما صغرت ومهما بلغت التضحيات أمامها، هؤلاء هم من ظهروا وجاؤوا ولن يفعلوا شيئًا في هذا العالم وسيرحلون دون أن يلحظ أحد، هؤلاء هم... هؤلاء هم... رفقائي في الواقع.

شئت أم أبيت فقد صرت واحدًا منهم، ولو مؤقتًا.

لكنني لست منسحقًا هكذا، وددت أن أصرخ في وجوههم أنني لست كذلك، لست مثلهم، لكن ما جدوى أي شيء من هذا الهراء. كانوا من جنسيات كثيرة، وبعضهم كانوا أُسرًا كاملة، يبدو أنهم معتادون رحلة تغيير الفيزا تلك منذ سنين طوال دون مقدرة أو رغبة -لا يهم- في العودة لبلادهم. تلك النظرة الثلجية وتلك الوجوه الخشبية الطامحة في البقاء حية لدقائق أخرى وليس لأعوام، دون أي أثر أو إنجاز أو مستقبل أفضل لذويهم أو أي شيء.

بعد ساعة انتظار تحاشيت فيها بقدر ما استطعت أن أحملق في وجوه هؤلاء اللاجئين الساعين لتغيير الفيزا.. الذين صرت منهم عمومًا، ذهبنا للطائرة.

هي ليست طائرة بأي حال. دون مبالغة كبيرة هي تشبه أوتوبيسات المواصلات العامة المهترئة، ولكن لديها جناحين وذيلاً.

لولا استسلام رفقائي اللاجئين وصعودهم الطائرة في رضوخ ما كنت لأفعلها أبدًا وأركب هذا الشيء ليطير فيسقط لأحترق وأتفتت. ضيقة فعلاً من الداخل، مقاعد ممزقة، وبعضها ليس به حزام أمان. كدت أنفجر ضحكًا حتى الموت عندما اكتشفت أن هناك مضيفة، ليس هذا فقط، بل هي توزع الابتسامات على الركاب اللاجئين، وتلاعب الأطفال تحت مسمى الواجب الوظيفي.

لم يكن هناك «بوردينج» من أي نوع، فاخترت مقعدًا به حزام أمان على الممر، كي لا أشاهد ما سيحدث في الجو، هذا إذا صعدناه بالأساس. قرأت كل ما أحفظه من قرآن وأدعية

دونما توقف، إلى أن توسطت المضيفة، المقتنعة أنها مضيفة، الممر في طرفه، لتدور المحركات هادرة ترج بدن الطائرة رجًّا، لتكاد أن تنخلع أجزاؤها، وتبدأ فقرة تعليمات الطوارئ! تخيل جندي في الحرب العالمية الثانية يتلقى تعليمات بأن يتنفس بانتظام لتجنب التوتر!

من دون إذاعة داخلية أو مايك، تولت المضيفة التي ذكرتني بعازفي الكمان في تيتانيك، تولت فقرة التوجيه والتعليمات، فانتبهت فضولاً متسائلاً عن اللغة التي ستخاطِب بها هؤلاء القادمين من بقع شتى ويعرفون لغتهم الأم فقط دون إتقان، لكنها بأريحية شديدة تحدثت بلغتها التي لا يفهمها أحد على متن ذلك الأوتوبيس الطائر، الفارسية، صارخة بالتعليمات حتى ظهرت عروق رقبتها لتتجاوز صوت المحركات. تابعتُها باهتمام بالغ لأرى خطة الطوارئ عمومًا. قالت صائحة والمحركات تحاربها:

- لطفاااا.. كاااه.. دررر.. حاااالة طواااارئ.

ثم أشارت إلى الرف بأعلى ومثلت حركة الماسك على الفم والأنف، صارخة وهي تهتز بابتسامة لطيفة:

- بوووووشاااانة.. استنشاااق.. هواااا.

فتحت الدرج أعلى رأسي وكان ما توقعت، فارغًا.

ثم استمرت المضيفة الدؤوب التي لا يتابعها غيري وهي توجه تعليماتها للجميع عمومًا، وصرخت وهي تشير أسفل المقعد:

- خمييييري كيييييسة.. استفرااااغ.. استفرااااغ..

اسـتفراااااغ.

وقامـت مندمجـة بتمثيـل أنهـا تتقيـأ في كيـس. لم أتحقـق مـن وجـود هـذا الكيـس، فلـن تكـون تلـك هـي أقـصى مخـاوفي، أن أتقيأ في تلـك الخـردة. ثـم بـدأت شرح الجـزء المهـم، في حالـة سـقوط الطائـرة:

- خـروووج.. باااازيكـر.. نمااايـش.. خـرووووووج.. خـروووووووج.

وأخـذت تشـير بحـماس نحـو بـابيّ الطـوارئ الوحيديـن، ثـم تحركـت الطائـرة بغتـة فاختـل توازنهـا ووقعـت في الممـر وهـي تولـول، قبـل أن تتماسـك وتتخبـط في المقاعـد وهـي تتجـه نحـو كابينتهـا في المقدمـة، بينـما قطعـة الهـلاك تزيـد مـن سرعتهـا وضوضائهـا واهتزازاتهـا، واللاجئـين رفقتـي لا تتغـير ملامحهـم بتاتًـا.

بعـد سـاعة مـن الترنُّـح في الجـو، اسـتكملتْ تلـك المضيفـة دورهـا ومـرت عـلى الـركاب ممسـكة بكيـس بـه بعـض البسـكويت والفـول السـوداني المملـح واللبـان، وأعطـت لـكل راكـب مـا التقطتـه يدهـا عشـوائيًا، وبعـد أن أنهـت تلـك العمليـة، صاحـت بصـوت يكافـح أن يعلـو المحـركات كالعـادة:

- فروووووود آاااامدن.. ورووود بخشكي.

ثـم حثـت الخطـى نحـو كابينتهـا مـن جديـد، فاسـتنتجت أننـا سـنهبط، أو لعلنـا نسـقط.

بعـد سـاعة سـوداء عرفـت فيهـا شـعور اللـبن قبـل أن يتحـول إلى جـبن، هبطنـا (بـل سـقطنا وتدحرجنـا) في مطـار تلـك الجزيـرة، ونفـس الوجـوم والاستسـلام عـلى أوجـه المسـافرين. نظـرت في

ساعتي بقلق، بهذا المُعدَّل من تلك التحركات شبه الميتة ستمر ساعة استلام الفاكسات، كنت أظن حينها أن مندوب شركتي قد أنهى كل شيء وأرسل الفيزا، لكن هيهات.

ما أن نزلنا من الطائرة حتى فوجئت بكتيبة مسلحة من الجيش الإيراني في استقبالنا بوجوه مكفهرة، لم يعرف أحدهم أي لغة، ولم يحاولوا حتى التحدث بالإشارة، فقط أوامر بلغة فارسية حادة النبرة متلاحقة الكلمات، ممتلئة بالغضب والتحذيرات، وهم يضربون المسافرين عشوائيًا بكعب الرشاش الذي يمسكه كل منهم. هلع حقيقي أصاب كل من هؤلاء المساكين، من نال ضربة ومن لم ينل. بينما أنا واقف أشاهد مصدومًا، حتى أفاقتني من ذهولي ضربة من أحد الجنود بسلاحه في أعلى بطني كدت ألفظ معدتي من فمي على أثرها. أعانني الألم الرهيب على عدم الإتيان بأي ردة فعل غبية ذات ثمن فادح.

المشهد الأكثر غرابة من كل هذا، هو هرولة جنديات إيرانيات إناث على سيدات وفتيات رحلتي اللائي لم تكنّ ترتدين الحجاب، أو المحجبات اللائي تلبسن أي شيء غير العباءة، هرولة غاضبة جادة ومرعبة، ممسكات بعباءات ألبسنها عنوة لهؤلاء النسوة، لإنقاذهن من الخطيئة ونجدة الجزيرة والبلد من كارثة أن تطأها من تكشف شعرها. كان الخوف باديًا على معظم السيدات حتى بعد أن فهمن سبب الهرولة وهجوم الجنديات عليهن.

- جلووو كيري صحبت كردن ايستاااادن در صاااف.

صياح وأوامر واعتداءات بكعوب الرشاشات، وزغر وحملقة في الأعين.

- ايييست تكيه توقف.. سااااختن تعلييييق.

هـرج ومـرج وخـوف وعـدم فهـم، إلى أن تراصينـا في طابوريـن ممتلئين بالارتجاف والهلع، طابـور للذكـور وآخـر للإنـاث بالطبـع. جـاء كبيرهـم بزيـه الرسـمي ونظـارة شـمس عاقـدًا كفيـه خلـف ظهـره يسـير بتـؤدة بالغـة وسـط مجموعـة جنـود، ليتفحـص كل سـنتيمتر مـن كل شـخص في الطابـور، قبـل أن يخـرج مسـاعده ورقـة مـن رزمـة كبـيرة يحملهـا، ويعطيهـا للمسـافر الـذي ينظـر قليـلاً إليهـا قبـل أن يهتـف المسـافر بصـوت عـالٍ ولهجـة حاسـمة ولغـة مجهولـة، كلمـة مـا.

مـر وقـت مـؤلم حتـى جـاء دوري لمقابلـة هـؤلاء القادمـين مـن فيلـم «أرجـو» وجهًـا لوجـه.

نظـرة ثاقبـة في عينـي، ونظـرات متفحصـة في باقـي جسـدي، قبـل أن يناولنـي ورقـة مماثلـة لم أحتـج لأمـر كي أقرأهـا، كانـت تحـوي فقـرات عـدة، كل فقـرة مـن لغـة غـير الأخـرى، ولم تكـن بينهـا لا العربيـة ولا الإنجليزيـة، احتبسـت الكلـمات في حنجـرتي، وهـي لم تكـن لتُفهَـم عـلى أي حـال، فنظـرت لكبيرهـم وهـززت رأسي علامـة الـلا فهـم. انتـزع ورقـة أخـرى مـن رزمـة يحملهـا شـخص آخـر ودسـها في يـدي عنـوة وعقـد ذراعيـه أمـام صـدره، بينـما تأهـب باقـي جنـوده بصـورة واضحـة، وأنـا أتحـاشى النظـر لمـن كال إليّ الضربـة بسـلاحه. فتحـت الورقـة لأجـد فقـرات بلغـات أخـرى، وإن ظهـرت العربيـة أخـيرًا، وكانـت تحمـل رسـالة واضحـة:

أهـلاً وسـهلاً بـك في جزيـرة قِشـم الإيرانيـة. نتمنـى لـك إقامـة سـعيدة حتـى حصولـك عـلى التأشـيرة الإماراتيـة. يسـعى العـالم المتآمـر جاهـدًا أن يُخضـع منشـآت إيـران النووية السـلمية للتفتيش

الـدولي، ولم يتـم التوافـق بهـذا الخصـوص ولـن يتـم. بنـاءً عليـه، سـيتم حـصر إقامتـك المحـدودة هنـا داخـل معسـكر الإيـواء. أي خطـوة تخطوهـا خارجـه سـيتم اعتبـارك جاسوسًـا وسـيتم إطـلاق الرصـاص عليـك في الحـال. والآن اسـتدر لضابـط المطـار وقـل لـه بصـوت واضـح.. «مفهـوم».

اسـتدرت للمجاذيـب وقلـت في سري: يلعـن أبـوك لأبـو النـووي لأبـو الفيـزا، وتمتمـت بلسـاني: مفهـوم.

فرد الحمار ناهقًا بغضب:

- مننمستوانمشمارابشنود.

لم أحتـج ترجمـة لأفهـم مـا يريـد، فأعـدت نطـق الكلمـة بصـوت أوضـح قبـل أن أشـيح بوجهـي لمبنـى المطـار البعيـد المهـترئ، ولفحنـي هـواء حـار مُشـبَّع بالأتربـة واللغـة الفارسـية.

-١٩-

بعد أن أنهينا الإجراءات في عشة المطار محاطين بجنود مسلحين يفوقوننا عددًا، ركبنا حافلة ترحيلات، ولوهلة نسيت سبب وجودي في ذلك المكان. انطلقت الحافلة لقرابة الساعتين ونصف الساعة، دون أن أرى أي شيء في طريقي، ما أوحى إليّ أنها جزيرة مهجورة تم تخصيصها لهذا النوع الغريب من السياحة. ساعتان ونصف في اهتزازات وصحراء مقفرة ملء البصر، حتى وصلت إلى الفندق المزعوم الذي اتضح أنه معسكر بالمعنى العسكري المباشر، سور مرتفع تعلوه أسلاك شائكة، وأبراج مراقبة في أركان المعسكر الأربعة، يحتوي كل منها على جندي متأهب مدجج بالسلاح. اجتزنا البوابة بعد تفتيش دقيق لكل فرد، بما فينا السيدات اللائي صرن محجبات منذ ساعات قليلة.

وبعد الإجراءات التي صارت كالجحيم الحتمي، احتُجِزَت جوازات السفر في خزينة في مكتب موظف الاستقبال المدعو «علي» حسبما نادوه، وجاء شخصان اعتليا منضدة في الريسبشن الضيق، قال أحدهما كلامًا بالأردية لغة الهنود الرئيسية، فتجمعوا حوله مستمعين بشغف، وهتف بكلام كثير فهمت منه ومن حركات جسده أن اسمه «علي» أيضًا، وتحذيرات كثيرة متلاحقة نزل بعدها من المنضدة وخرج من مبنى الاستقبال هذا، وهم وراءه صاغرون. وتولى الشخص الثاني الكلام بإنجليزية محطمة وقال محدجنا بعينين واسعتين إن اسمه «علي» وإن بلاده تحكمها ثورة إسلامية، وإن عدم

الانصياع للتعليمات سيكون وخيم العواقب.. لا تدخين.. لا كشف شعر.. لا شِجار.. لا خمور. كدت أن يغشى عليَّ ضحكًا من تلك الأخيرة. وأعاد التحذير الحاسم بشأن الخروج من المعسكر ومفاعل بلاده النووي الذي يتوق العالم جاهدًا لاستكشافه، وقال إنه سيتولى إرشادنا إلى باقي التعليمات.

تلقِّي الفاكسات يتم بين الساعة الرابعة والخامسة، وذلك هو الوقت الوحيد المسموح لنا فيه بالوجود في الاستقبال وانتظار نتائج الثانوية العامة. إجراء المكالمات مسموح بعدها بين الخامسة والسادسة، بزمن محدد بدقيقة واحدة ومكالمة واحدة في اليوم. أخرجت موبايلي مذعورًا وحفظت رقم شريف، الشعرة الأخيرة التي تربطني بالعالم الآخر، ولعنت نفسي على تركي للشاحن معتقدًا كالساذج فيما قاله مندوب الشركة إن الرحلة لن تُكمِل يومًا واحدًا قبل أن أعود. أفاقني من عملية حفظ الرقم تلك ما قاله «علي» ذو اللغة الإنجليزية عن سعر تلك المكالمة الوحيدة ذات الدقيقة، أربعون درهمًا. شأنها شأن كل المناطق الحدودية في العالم، يتم التعامل فيها بعملتي الدولتين. لكن هذا السعر الكبير حقًّا مثّل نسبة معتبرة مما معي من سيولة، يجب أن تكون كل خطوة بحساب دقيق. واستمر في تعليماته أنه سيقودنا إلى أماكن التحرك في المعسكر، وصاح أن نتبعه في طابور.

لماذا يا علي يا ناطق بالإنجليزية أجبرتنا على السير في طابور؟ علي الناطق بالهندية لم يفعل هذا!

سؤال تافه ولم أسأله.

خرجنا وسرنا على الأسفلت قليلاً وتم تعريفنا بالمكان

والمسجد وعنابر النوم الجماعية والحمامات والمطعم الجماعي والكافيتيريا. كل يوم إضافي سأقضيه في هذا المعسكر ودون تدخين ولا موبايل ولا صديق ولا أمان سيستنزف من عمري شهرًا على الأقل. صارت حياتي مُعلَّقة في أسلاك فاكس يعمل لمدة ساعة يوميًا.

أذّن أذان العشاء، تابعته باهتمام بالغ لأتحقق مما سمعته كثيرًا في حياتي بخصوص صيغة الأذان في إيران.. جملة جملة.. ووجدته في تطابق كامل مع ما نعرفه. دخلت المسجد بحذر وصليت الجماعة بانتباه فائق، وكان التطابق في الصلوات موجودًا كذلك. ظننت حينها أن ما يترامى عن الاختلافات هو محض هراء، قبل أن تنكشف لي الحقيقة لاحقًا.

اتجهت لأحد عنابر النوم المهولة. كانت القواعد أنه لا توجد قواعد في هذا الشأن، بسبب كثرة المغادرة والدخول، فإذا أردت أن تنام فلتقفز على أي فراش شاغر. كنت منهكًا حد الهلاك؛ ألقيت جثتي بملابسي التي لا أملك غيرها على أقل الأسِرَّة قذارة، ولكن شخير النائمين منعني من الانسلال داخل ما اعتبرته حلمًا بعيد المنال. حلم أسطوري رائع مريح. أن أنام.

ختمت بتلك الليلة السوداء ذلك اليوم الأسود. قد أكون غشي عليّ لدقائق أو لم يحدث، سيان. لم أنل أي راحة، بل زاد استنزاف طاقاتي وصبري إلى حدود غير مسبوقة.

عند استيقاظي في الصباح التالي، أو نهوضي للدقة، فلم أنم بالأساس منذ وقت هائل.. سرت مترنحًا إلى المطعم لأفطر، واكتشفت أن ورقة التحذير النووي التي قرأتها في المطار، ملصق نسخ منها في أي متر ممكن أن تقع عليه عيناي دون

أي مبالغة. الضغط على رأسي والتوتر والقلق مما يدور عند مندوب الشركة مع مصلحة الجوازات والهجرة، والملل، وذلك السجن، وانعدام النوم والتدخين والخوف العام.. كاد رأسي ينفجر إلى فتات وشظايا بسبب كل هذا. قضيت الوقت الذي لا يمر سائرًا كالزومبي بين الكافيتيريا والمطعم، للدرجة التي جعلت أحد الجنود يحدجني بنظرة كأنني من قريش، قبل أن يقترب مني يتفحصني وهو يسير ملاصقًا لي، ظانًا أنني تحت تأثير أي مخدر، فقررت الاستغناء عن تلك التمشية التعسة، عنصري الترفيهي الوحيد، وجلست في الكافيتيريا على وسائد أرضية ناظرًا للساعة أدور مع عقرب الثواني في انتظار الساعة الرابعة.

واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة.. العقرب يشير رأسيًا لأسفل.. سبعة.. ثمانية.. يشير يساراً.. عشرة.. إحدى عشر.. لأعلى أخيرًا! هائل رائع ممتاز! مرت دقيقة كاملة!

فلنستمر.

ثلاثة.. أربعة.. خمسة...

ثم شعرت أن الدنيا أظلمت، فنظرت جانبي لأجد شخصًا في منتصف الثلاثينيات يجلس بالقرب مني ويتابع معي باهتمام عقرب الثواني.

إذًا هو مستشفى مجانين.

قال بهدوء مُرحِّبًا:

- حالة خوبي؟

فرددت بالعربية بودّ مماثل:

- هفتح دماغ أمك.

فاعتـدل في جلسـته والاهتـمام يكسـوه وربّـع سـاقيه وسـألني بالإنجليزيـة مبتسـمًا:

- هل تتحدث الإنجليزية يا صديقي؟

تجاهلـت عـدم وجـود أي سـبب لاسـتنتاجه هـذا، واعتدلـت مثلـه ورددت:

- نعم يا صديقي.

وهكذا صرنا أصدقاء.

فهـزّ رأسـه وابتسـم وسـكت. اخـترت أن نسـتمر في الحـوار بـدلاً مـن أن نعـود معًـا لمتابعـة عقـرب الثـواني الـدؤوب، فسـألته:

- وأنت.. هل تتحدث الإنجليزية يا صديقي؟

فأجابني بحماس بالغ:

- نعم يا صديقي.

فتوطدت صداقتنا.

بعـد الانهـماك لسـاعة في حديـث حسـبما سـمحت بـه إنجليزيـة أحـدث أصدقـائي، فوجئـت أنـه إيـراني، قبـل أن أعـرف أنـه هنـا لأنـه يعمـل سـائقًا يجلـب المـواد الغذائيـة يوميًـا للمعسـكر، وأنـه مـن أهـل تلـك الجزيـرة، وأن اسـمه عـلي. كنـت متهـورًا بشـدة حـين نقلـت لـه ملاحظتـي عـن تطابـق الأذان الـذي سـمعته مـع الأذان الـذي أعرفـه. هنـاك أحاديـث لا يجـوز مناقشـتها، خصوصًـا في وضـع مثـل ذلـك، لكـن ذهنـي المشـوَّش حينهـا لا يمكـن لومـه عمومًـا. فأجابنـي بـأن الجزيـرة تلـك ذات أغلبيـة سُـنِّيَّة، بمـا فيهـا

ذلـك المسـجد في المعسـكر، وأنـه هـو شـخصيا سُـنّي. فتماديـت وسـألته عـن سـبب تسـمية كل مـن رأيتهـم بنفـس الاسـم، فأجـاب أن هـذا هـو العُـرف لتجنـب أي نـوع مـن الاضطهـاد في معامـلات الدولـة العامـة.

أعتقـد أنـه لـو انتـصر عنـصر أو عـرق بـشري مـا عـلى باقـي الأعـراق ومحاهـا، فسـيبدأ أهـل هـذا العـرق في ممارسـة عنصريـة جديـدة مبتكـرة مبنيـة عـلى طـول الأهـداب أو مـدى اسـتدارة العنـق، قبـل أن يُمحـى العنـصر المضطهَـد، فتُـمارَس عنصريـة جديـدة تخـص لـون العـين أو مـدى عذوبـة الصـوت. سـيجد القبـح البـشري متنفسًـا يـسري خلالـه مهـما كان.

كان عـلي صديقـي الجديـد والوحيـد يتركنـي ليقـوم ببعـض الأعـمال هنـا وهنـاك، قبـل أن ينضـم لي مـن جديـد لنتبـادل بعـض الأحاديـث. ألهـاني هـذا إلى حـد كبـير عـن التركيـز في كـوني مُنهـكًا ووضعـي الإجـمالي عمومًـا. إلى أن كانـت السـاعة الرابعـة إلا ربـع.. وكأن يـوم الحـشر قـد بـدأ.

جحافـل مـن البـشر، أعـداد مهولـة خرجـت فـرادى وجماعـات مـن كل أركان ومبـاني المعسـكر، حشـود لم أتخيـل أن المعسـكر يحتـوي مثلهـا بالفعـل. كانـوا جميعًـا مهرولـين نحـو قبلـة المـكان، الريسبشـن، حيـث الفاكـس. جهـازا التنفـس الصناعـي وتنظيـم ضربـات القلـب معًـا لا يعيـدان الشـخص للحيـاة مثـل جهـاز الفاكـس هنـا.

هرولـت معهـم بمـا لـديّ مـن طاقـة متبقيـة، إلى أن وصلنـا مبنـى الاسـتقبال الصغـير، لأجـد الحشـود مكتظـة عـلى البـاب الضيـق يتصارعـون للدخـول. دون أن أتسـاءل عـن كيفيـة إعـلان نتائـج

وصـول الفاكسـات، ومتجاهـلاً حقيقـة أننـي لـو اندسسـت وسـطهم في تلـك المعجنـة فسـأُطحن إلى بـودرة، صارعـت مـن أجـل الدخـول، حتـى بـرز جنديـان اثنـان مـن الداخـل يدفعـان الحشـد ويضربانـه بكعبـي سـلاحيهما، ونالتنـي ضربـة مـن أحـد هذيـن الملعونـين في كتفـي كادت تُهشِّـمه، وأخـذا كالعـادة يصيحـان بغضـب باللغـة الفارسـية التـي لا يفهمهـا أحـد غيرهـما.

سـكتنا جميعًـا محتشـدين أمـام المبنـى، وهـما يعطيـان الأوامـر المُتعلقـة بتنظيـم عمليـة تلقـي الفاكسـات. مـن جديـد اسـتنتجت مـن إيماءاتهـما وحـركات جسـديهما أننـا لـن ندخـل وسـينادیان هـما أسـماء هـؤلاء مـن سـيولدون مـن جديـد. بعـد برهـة خـرج أحـد الموظفـين ونـاول جنديًـا منهـما فاكسًـا، فاشرأبَّـت أعنـاق البـشر، وشرع يقـرأ اسـم صاحـب الفيـزا، فخـرج الموظـف نفسـه مـرة أخـرى وناولـه فاكسـين جديديـن، فتراجـع في قـراره ووقـف صامتًـا يتلقَّـى الفاكسـات مـن الموظـف كل حـين، لينـادي عـلى الأسـماء في نهايـة السـاعة المخصصـة للخـلاص.

وعدت أسيرًا لسكين الوقت لتذبحني ببطء.

عدت لعد الدقائق.

الوقت..

الوقت..

الوقت والانتظار..

ثمانيـة.. تسـعة.. عـشرة.. سـبعة عـشر.. واحـد وعـشرون.. ثمانيـة وعـشرون.. ثلاثـون.. أربعـة وثلاثـون.. تسـعة وثلاثـون.. أربعـون.. أفشـخون.. سـلطعون.. بـركان مجنـون.. صامـدون.. مغتاظـون..

كاظمـون..

ستون..

أخيرًا..

أصبـح في يـد الجنـدي رزمـة أوراق، أخـذ ينـادي اسـمًا اسـمًا، لتنطلـق صيحـة فـرح وتهليـل مـن صاحـب كل اسـم، والأوراق تتضـاءل، وتتضـاءل، وتبقـى ورقتـان، ثـم اختفـت الأوراق!

أصـدرت سُـبَّة عاليـة وصوتًا حلقيًـا اعتراضيًـا كاد أن يحـرك الرياح، مـا جعـل الجنديـين يلتفتـان بغضـب بحثًـا عـن ذلـك المُعـترِض، لكـن أنقـذني ابتلاعـي في الزحـام الـذي بـدأ ينفـضّ. اتجهـت لداخـل الريسبشـن وأنـا أعـد نقـودي، وأخرجـت محمـولي وكان فـارغ البطاريـة بالطبـع. اسـترجعت رقـم شريـف مـن ذاكـرتي، وطلبـت الرقـم بعـد أن دفعـت ثمـن الدقيقـة الوحيـدة المسـموح إجراؤهـا.

أخـذ هاتفـه يـرن طويـلاً، وأنـا أشـير لموظـف التليفـون أن المكالمـة لا تـرد، حتـى انفتـح الخـط أخـيرًا.. عـلى آخر صـوت تمنيت سـماعه.. صـوت أنثـوي مـرِح يتحـدث بالتاجالـو لغـة الفلبـين.

حفظت الرقم بصورة خاطئة.

أو طلبته خطأ.

سيان..

رصاصة طائشة..

ويوم إضافي في هذا الجحيم.. يوم على الأقل!

-٢٠-

أخـذت أسـير كالمجنـون في أرجـاء ذلـك السـجن، إلى أن ربـت أحدهـم عـلى كتفـي، لأجـده عـلي صديقـي الوحيـد، وسـألني باهتـمام إن كنـت تلقيـت تأشـيرتي. لم أرد، وقلـت لـه مبـاشرة إننـي أريـد أن أدخـن، سـأموت لـو لم أفعـل. جحظـت عينـاه وتلفَّـت كثـيرًا ثـم همـس بحـذر إن معـه حشيشًـا. لم يكـن هـذا مـا قصدتـه، أقـصى طموحـاتي كانـت سـيجارة أو اثنتـين، لكـن هـذا أفضـل بالطبـع. بـشّرني أنـه ليـس حشيشًـا فحسـب، بـل هـو أفغـاني أيضًـا.

كفى دحرجة في خريطة العالم تلك!

لا أبـالي يـا عـلي بجنسـية الحشـيش، أي نـوع يـا عـلي سـيكون فعَّـالاً وأرغبـه بشـدة. طلـب منـي مائـة درهـم، ففاصلتـه فوافـق عـلى عشريـن. تلفَّـت كثـيرًا وقـال لي بخطـورة بـأن أقابلـه تمـام السـاعة العـاشرة أمـام الكافيتيريـا.

مـرت تلـك السـاعات كأعـوام ودهـور كثـيرة، حتـى جـاء الميعـاد، فانتظرتـه في المـكان المنشـود، وكانـت أعـداد المـارة منخفضـة بشـدة، شـبه منعدمـة بالكامـل، حتـى ظهـر صديقـي المعتـوه وهـو يـدس يديـه في جيبيـه ويسـير بتوتـر، وهـو لا يكـف عـن التلفُّـت كمـن يخفـي حشيشًـا.

لـولا أننـي كنـت أتمـزق مـن رغبـة التدخـين لكنـت تركتـه وانصرفـت، أو لصفعتـه ألمـين وقبضـت عليـه. اقـترب منـي المختـل وقـال جاحظًـا مـن وسـط ياقـة قميصـه أن أتبعـه، واسـتمر في السـير

المريب. أخذ يسير ويسير في مسارات ملتوية غريبة وأنا وراءه كأنني ذيله. كان يمسح المكان عمومًا لمعرفة أماكن الجنود، وكل خطوتين كان ينظر للوراء ليومئ لي برأسه ويستمر في السير. وأخيراً توقف بغتة والتفت لي، كنا خلف المسجد حينها ولا يوجد ثمة بشري في المحيط. ثم أشار لي أن أتبعه، والتصق بنافذة مفتوحة وتسلقها واختفى داخل المسجد!

تجمدت مكاني كتمثال، وبرز بعدها برأسه يشير لي صامتًا لكن بيد محتدة أن أتبعه للداخل. ترددت كثيرًا قبل أن يبرز من جديد والهلع يملؤه وهو يشير أن أتسلق وألحق به. غير مصدق لما يحدث، استندت على جلسة النافذة وقفزت للداخل غير منتوٍ إطلاقًا أن أجاريه، وتشاجرنا همسًا بكلمات سريعة وإشارات محمومة، فقرر أن يتجاهلني، وأخرَج سيجارة حشيش ملفوفة وأشعلها!

كنت أتقافز وأنا ألعنه بكلمات مكتومة، وهو يدخن ولا يرد، أخذت أدور كالمجنون ولا يوجد أي شيء أحطمه على رأسه!

سجائر في المسجد! حشيش! فليلعننا الله ويحرقنا!

استدرت لأرى شبحه الأسود وسط الظلام ممسكًا بجمرة الحشيش المشتعلة مناولني إياها.

رغم كل شيء.. تناولتها كالمسحور.

سامحني يا رب.. اسخطني.. خذني!

قرَّبتها من فمي ببطء.. حتى قبلنا بعضنا.

وسحبت نفسًا عميقًا روى كل خلاياي، وسحبت نفسًا آخر، وآخر.. مادت الأرض بي؛ قررت أن أكتفي، فسحبت نفسًا إضافيًا،

وأتبعته بنفسين. تأكدت أن الأرض تدور حول محورها وحول الشمس، وأن الإنسان لا وزن له بتاتًا، وأن الظلام علاج الروح، وأن الحشيش أهم من الماء والهواء، وأنني في مسجد ما زلت!

يكفي هذا الدنس!

سرت مُترنِّحًا نحو النافذة، وقبل أن أخرج منها رأيت بالقرب منها جنديين بسلاحيهما يجوبان المكان. أجفلت متواريًا، فلمح ظلي أحدهما وتواريت خلف الزجاج وتبددت الدماغ بأكملها في لحظة، وحل محلها رعب مميت مع مشهدهما وهما يقتربان من النافذة بتشكك. انسحبت للداخل ببطء شديد، لأجد شبح علي الأسود مرتكنًا على حائط يدخن، تقافزت إليه بمعدة ألقي فيها حجر وقلب يكاد ينخلع، وأخبرته بفحيح متلاحق عن الجنديين، فطارت دماغه هو أيضًا وابتلع السيجارة بنارها.. حرفيًا. وأخذ يتلفت كفأر في مصيدة وهو يرد بهتاف من فحيح:

- انتهينا.. ضِعنا.. انتهينا.. ضعنا!

سمعنا الجنديين عند باب المسجد المغلق يُخرِجان سلسلة مفاتيح؛ مادت الأرض بي لاعنًا نفسي وعليّ. مستحقين لكل ما سيحدث، لكن ما تمنيت أن يكون على أيدي هؤلاء وفي ذلك البلد. لا يوجد أي مجال للتفكير ولا مكان للاختباء.. إلا ذلك المنبر الصغير.

انتزعت علي من مكانه وهرعنا بخطوات واسعة لا تُحدِث صوتًا، وقِفل الباب ينفتح تكة وراء الأخرى. انكمشنا لأدنى حجم ممكن واندسينا أسفل المنبر ذي الباب الخشبي الصغير غير الموصد، وأغلقناه ببطء شديد مع صوت دوران مقبض باب

المسجد وصرير انفتاحه. حبسنا أنفاسنا، وحاولت إيقاف طبول قلبي، وأضاء الجنديان النور، ووقفا قليلاً قبل أن يتبادلا القليل من «أمروز كادم تمام شوده إيست أزيرم».

ثم أطفآ النور وخرجا وأوصدا الباب.

بقينا على نفس الوضع كثيرًا دون حديث، إلى أن قررت الخروج من المنبر، متوقعًا أنني سأجد جيشًا شاهرًا أسلحته في انتظاري، ثم خرج ورائي المعتوه الملعون واتجه نحو النافذة ببساطة، فأمسكت بتلابيبه وأمرته بحسم أننا سننتظر حتى الصباح؛ لن أغامر بالتحرك وحيدًا في المعسكر الخالي إلا من الجنود المتشككين. سألني إن كنت أعني الفجر، فأدركتُ المأزق. سيحين أذان الفجر قبل أن يملأ الناس أرجاء المعسكر.

سجن داخل سجن داخل سجن داخل سجن!

فكرت وقررت أننا سننتظر حتى قبل الفجر بدقائق ونقفز حينها من النافذة، ونتظاهر أننا ذاهبون لأداء الفريضة. فجلست عددًا من الساعات صامتًا في الظلام، وسط مسجد لم أحترم قدسيته، مع شخص مختل.

الوقت..

الزمن..

الساعات والدقائق..

والثواني..

سيوف تذبح!

كنت أشعر بجهازي العصبي يتفتت، وبعقلي يحترق، وبروحي

يحـترق بأنفاسي.

تـم مـا خططـت لـه ثـم أشرق الصبـاح وتركنـي عـلي، وجلسـت وحيـدًا لأعـد الدقائـق مـن جديـد في انتظـار سـاعة الخـلاص.. السـاعة الرابعـة.

وتكـرر كل شيء بحذافـيره.. مراقبـة الوقـت وأوجـه البـشر المنهكـة.. السـاعة الرابعـة إلا ربـع.. هرولـة التعسـاء.

لا جديـد إطلاقًـا. محـاولات دخـول مبنـى الاسـتقبال، اكتظـاظ الزحـام، الجنـدي يـضرب عشـوائيًا، اصطفـاف الحشـد في صمـت، ترقُّـب، تلقـي فاكسـات، تـلاوة أسـماء المولوديـن مـن جديـد.

كل شيء تم كما هو بالأمس.. بما فيه عدم وصول تأشيرتي.

لم يخـرج شيء عـن السـياق، بمـا فيـه سـؤال عـليّ لي عـن وصـول تأشـيرتي، وعـدم إجابتـي، وسـؤالي شـيئًا آخـر منـه. لا ليسـت نفـس الرعونـة ومصيبـة الليلـة الماضيـة التـي مـا تـزال آثارهـا تنهـش في، بـل طلبـت شـيئًا أبسـط بكثـير.

طلبت أن أخرج في جولة في الجزيرة خارج المعسكر.

أُدرِك مـدى الخطـورة، لكننـي بالفعـل كنـت عـلى طـرف حفـرة الجنـون لـو لم أغـير أماكـن وأفعـل أي شيء وأشـاهد أي شيء.

كل شيء هنـا يتكـرر كـما هـو. جحظـت عينـا عـلي، تلفـت وهـو كالمريـب يـكاد أن يقـول خـذوني، ثـم شرح لي همسًـا عـن الأماكـن الطبيعيـة الخلابـة الواعـدة التـي سـيأخذني إليهـا، وعـن قلعـة الجبـل الأثريـة العظيمـة، وعـن أنهـار تشـبه أنهـار الأمـازون، وعـن خطـورة كل هـذا عليـه حـال ضُبِطنـا (وكأننـي سـأكون في مأمـن)، وعـن أجـرة تلـك الرحلـة البالغـة بالطبـع مائـة درهـم خفَّضتُهـا

لعشريـن كالعـادة.

الجديد هو أن التنفيذ كان في لحظتها.. حالاً!

أخـذ يمسـح بعينيـه المـكان كأنـه يدرسـه للمـرة الأولى، ثـم قـال بـأن أسـبقه خلـف أحـد مبـاني المبيـت والنـوم، المـكان الوحيـد في المعسـكر الـذي لا يـراه أي مـن أبـراج المراقبـة الأربعـة. تركتـه إلى هنـاك بعـد أن أعطـاني تعليـمات الخطـة.

وقفـت كالشريـد في المـكان المنشـود، انتظـرت حتـى ظهـرت سـيارته النصـف نقـل واقتربـت منـي ثـم وقفـت بغتـة. أمامـي نصـف دقيقـة كي أدس نفـسي في صندوقها الخلفـي الممتلئ بصناديق مـواد غذائيـة وصناديـق أخـرى فارغـة. بعد أن انكمشـتُ وسـط كل هـذا في أعمـق نقطـة ممكنـة خبطـت ثـلاث خبطـات سـينيمائية لصديقـي المعتـوه الـذي صـار مرشـدي السـياحي، فانطلق بسـيارته، وأنـا لا أرى شـيئًا بالطبـع، لكنـي اسـتطعت تمييـز أنـه عـلى بـاب المعسـكر يتبـادل الحديـث مـع الحـراس. وددت لحظتهـا أن ألغـي رغبتـي الغبيـة تلـك، لكـن كان الأوان قـد فـات تمامًـا، بعـد أن انطلقـت سـيارته خـارج المعسـكر تتقافـز بعنـف وسرعـة عـلى الأرض غـير الممهـدة، وانطلقـت حبيسًـا وسـط صناديـق في صنـدوق سـيارة نقـل، متجهًـا إلى جولـة سـياحية في بلـد نـووي يترقـب تسـلل مفتشـين وجواسـيس.

-٢١-

اقترب الأخ المنتشي بالإفساد في الأرض من رجل لمحه يجلس وحيدًا في أحد أوقات الراحة، إلى أن صار تمامًا أمام عينيه. تبادلا نظرات فارغة المحتوى، قبل أن يلوي نظره نحو رجل وامرأة يجلسان في ود عظيم وهما يتهامسان ويضحكان. عاد بعينيه للرجل الذي تلوَّن وجهه، فاطمأن ونظر مجددًا نحو حجر قريب، وقبل أن يرجع ببصره للرجل فوجئ بنفسه يطير بعيدًا ليرتطم بالأرض في صدمة عنيفة.

عاود الوقوف سريعًا مكسوًّا بذهول وغضب، ليجد الرجل واقفًا يبادله النظرات النارية المتحفزة. لحظات مرت قبل أن يزمجر الرجل وهو يجري نحوه ليصرعه من جديد، فتراجع مصدومًا وابتعد سريعًا إلى مكانه الأول، وتضاعفت بداخله الرغبة في السيطرة على هؤلاء القوم وتطويعهم لأمره.

أما أخوه والنادمون فقد تصالحوا مع أنفسهم ومع الجبال والسماوات، تصالحوا مع كل شيء، إلا مع خطاياهم. صارت أرضهم الواقعة وسط الجبال كالمغناطيس يجذب المذنبين من أنحاء الأرض. أصبح مشهدًا طبيعيًا أن يسير رجل أو بضع رجال كالمجاذيب ويبكون مُنهنهين، وهم يخترقون تلك الجبال ويهرولون في الممرات متدلين الأذرع، حتى يصلوا إلى قدس الأقداس. الأخ وحشوده وقد تراصوا في دوائر كثيرة، شاخصة أبصارهم الزائغة نحو السماء وهم يدورون حول أنفسهم، وبعضهم يدور في حلقات عكس اتجاه دوران

الكواكب، وهم يزفرون جماعة، زفرات ذات اتساق مع إيقاع خطواتهم وانحناءاتهم. ينضم النادمون الجدد بعد لمسة منه على رؤوسهم، قبل أن يجدوا لأنفسهم مكانًا وسط الحشود ويُطلِقون العنان لبكائهم وهم يدورون رافعين رؤوسهم نحو السماء.

وكبرت بطن «يون»، لتشتعل «ديس» بالغيرة وهي تتحسس بطنها الفارغ من جنين. شعرت «يون» بأنهار من الحب نحو ذلك الذي يتحرك في أحشائها، وقررت «ديس» أن هذا ظلم كبير، أن تحوز منافِسَتُها الجمال والأمومة، وهي لا. فنظرت إلى الحجر نفسه، الحجر الذي هشَّم رأس صديق زوجها.. زوجيهما.

...

انصرف اهتمام هؤلاء القوم عن الزراعة والصيد، إلا بما يسد رمقهم، وأصيبوا بهوس البناء بعد أن تعلموا تطويع الحجارة واستخدامها في بناء البيوت، التي صارت أقوى بكثير، وأكثر توفيرًا للأمن والخصوصية، ولم يتوقفوا. تمنوا أن يرتفعوا بالبيوت لما هو أعلى.. محاولات وجهود.. الكل مُسخَّر وشغوف. بالكاد استطاعوا مضاعفة ارتفاع البيوت، فصارت تحتوي الشخص واقفًا بدلاً من زاحفًا، ولم يتوقف الشغف، ولكن تضاءلت كميات الحجارة المتاحة، فظهر الأخ الذي صار غاضبًا من مخبئه وتجول خلالهم أجمعين، والرجاء يقطر من أعينهم يبغون حلاً.

مزيد من الأحجار.

حتى ذلك الرجل الذي صرعه اقترب منه شاعرًا أن هناك حلاً لديه. استمر الأخ في المسير في أرضهم، فاجتمعوا جميعًا لا إراديًا

خلفه وهو يطوف بهم، واثقًا أنه امتلكهم أخيرًا.. بإرادتهم، قبل أن يرتكز على الأرض بفرع الشجرة الذي يستخدمه كعصا، ويستدير إليهم وقد خلبت لُبَّه نظرات الرجاء تلك، فلم يعطِهم الحل دفعة واحدة، فقط أشاح بوجهه نحو هضبة مرتفعة تقع على مرمى البصر، فنظروا جميعًا تجاهها، وساروا رويدًا رويدًا في جماعات، قبل أن يهرولوا كالمحمومين، ليجدوا حولها صخورًا كثيرة متساقطة تصلح لما أرادوه.

أما أخوه وقومه الندَّابون فقد تضخم عددهم وازدحمت الأرض التي يحتلونها، للحد الذي دفع كثيرًا منهم لتسلق الجبال التي تحيطهم، والارتكاز على نتوء أو بروز، والاستمرار في العويل الذي صار مُنغَّمًا متداخلاً بتنسيق كالكورال في الأوركسترا. وضم الوافدون المذنبون الجدد أدوات جديدة مساعدة في جَلد الذات ندمًا، جلود حيوانات وأفرع أشجار، كانوا خير داعم في العقاب الذاتي، همهمة جماعية، زفرات، نحيب، حركات دائرية محمومة، رؤوس مرفوعة للسماوات، وضربات وصفعات للظهور العارية. زادهم منظر الدماء والعلامات حماسًا وانخراطًا في تلك الطقوس. أما الأخ، كبيرهم نفسه، فكان منهمكًا في القيادة والتنسيق بين كل هؤلاء، جنبًا إلى جنب مع طقوسه في استقبال المُنضمِّين الجدد، ولم يخفف كل هذا من شعوره بالذنب، بل ضاعفه. شعر بالمسؤولية الكاملة عن انتشار الشرور التي أدت بكل هؤلاء إلى ارتكاب خطايا، رفضتها لاحقًا فطرتهم الطيبة، فأتوا هنا بعد أن ضاقت عليهم الأرض. اعتبر نفسه المذنب الأعظم.

وبعد ليلة جميلة عاشتها «يون»، لم تلتقِ فيها «توبيا»، الذي انطلق للصيد من أيام، وقضتها في اللهو والمرح مع صديقها

الجـدي، وطفلتهـا التـي مـلأت دنياهـا الصغـيرة سرورًا، مـع حـظ سـعيد بـأن وجـدت الكثـير مـن الفواكـه بسـهولة اقتاتـت عليهـا، وعصـير حضَّرتـه لهـا «ديـس» في ورقـة شـجر كبـيرة ملفوفـة كالوعـاء.. أول هديـة في حياتهـا.. نامـت مبتسـمة والجـدي غـافٍ في سـلام.

أمـا «توبيـا» فقـد توقـف عـن مطـاردة فريسـته بعـد أن سـمع تلـك الهمهـمات القادمـة مـن تلـك الجبـال. سـقط الرمـح مـن يـده وغـاب وعيـه عـن كل شيء، إلا مـن ذلـك الصـوت الخافـت. أخـذ يقـترب تجاهـه وصوتهـا يرتفـع رويـدًا رويـدًا. أدرك فحواهـا ومـدى صدقهـا. هـؤلاء قـوم يعانـون ويتألمـون ندمًـا. تُـرى كـم منهـم قتـل مثلـه؟ ومـا هـي ذنـوب الآخريـن؟ لا يهـم.. لا يهـم إطلاقًـا. ذنبـه الخـاص هـو مـا يغـص في حلقـه ويقـض مضجعـه ولا ينسـاه لحظـة. تسـارعت خطواتـه مـع ارتفـاع الهمهـمات.. صدّقهـا.. آمـن بهـا.. مكانـه هنـاك معهـم، بـل في مركـز تجمعهـم. صـار يركـض.. يتعـثر.. يقـف ويهـرول.. يبـكي ويضحـك، إلى أن صـار واقفًـا أمـام الجبـال مبـاشرة، فتوقـف مـن الرهبـة، ودخـل ببـطء شـديد. خطـوات ويقـف يختلـس النظـر. بـدأت رأسـه في التمايـل مـع تلـك الأناشـيد عديمـة الكلـمات. يدفعـه قلبـه دفعًـا للاسـتمرار وإلقـاء عـبء ذلـك الذنـب الخالـد. في الممـرات يجـد زُمـرة مـن أمثالـه المذنبـين المسـتجدين عـلى المـكان، فـلا يلقـي أيهـم بـالاً للآخريـن. كلٌّ مـع ذنبـه يحملـه، ويصلـون جميعًـا إلى قـدس الأقـداس، فيرتجـف كل منهـم كالمصعـوق. يشـاهد كل هـؤلاء القـوم، وكل ذلـك التجـرد، وهـذا الكـم مـن النـدم الصـادق.. دمـوع ودوائـر بشريـة وأناشـيد وتلويـح بالـرؤوس، كرابيـج تدمـي الظهـور ودوامـات لا تتوقـف وأعـين كاملـة البيـاض، صراخ وبـكاء وتلـوّي، وكبيرهـم يسـتقبل

المنضمين الجدد الذين تراصوا في طابور كالمجذوبين. يتحركون ببطء نحو «واعظ» يمسك برأس كل منهم فيتشنج ويسيل الزبد من فمه كالأنهار، وينطلق متشنجًا بعشوائية في المكان. يتخبط الأشخاص والجدران الجبلية، حتى يستقر في مكانه وينطلق مؤديًا دوره الجديد. وجاء دوره. وقف «توبيا» أمامه، وتلاقت أعينهما، للمرة الأولى منذ يوم القتل الأول.

-٢٢-

لعنة سوداء شيطانية أن يتحكم أحد بك ويقود سيارة أنت في صندوقها لا ترى ولا تعرف شيئًا، خصوصًا في بلد متوتر مثل هذا. دفنت رأسي كي لا يظهر وسط الصناديق ليتلقى رصاصة قناص إيراني يخشى المراقبين الدوليين.

مر كثير من الوقت والسيارة لا تتوقف عن القفز على المطبات، وتكاد عظامي أن تتحطم، وازداد ندمي على تلك الرغبة مجهولة العواقب.

توقفت السيارة أخيرًا في مكان ساكن تمامًا، وترجّل علي وأزاح الصناديق المحيطة بي، وأشار لي أن أترجَّل معه، فنزلت لأرى أننا في صحراء مُقفرة ممتدة لما لا نهاية، فراغ تام إلا من بركة مياه راكدة على مقربة من السيارة، أشار لها علي وقال بفخر:

- بحيرة.

أطلت النظر إليها وإلى الصحراء، قبل أن أرد عليه:

- جميلة. شكرًا. فلنعد.

فغر فاه وقال إنني لم أرَ شيئًا بعد. شكرته مجددًا وقلت إنني اكتفيت بتلك البركة الراكدة وأمرته بالعودة للمعسكر، فقال إنه سيتخذ طريقًا يريني من خلاله بعض المعالم الأخرى، دون حتى أن أبرح السيارة. طلبت منه أن يقسم أنها بالفعل في طريق الرجوع، بعد أن أقسمت أنني فعلاً اكتفيت ولا أريد مشاهدة أي شيء آخر. ركبت جواره وانطلق بالسيارة وسط كل

هـذا الـلا مـكان عديـم النهايـات.

قـاد السـيارة كثـيرًا.. كثـيرًا جـدًا.. حتـى وصلنـا بركـة مماثلـة في صحـراء أخـرى. لـولا وجـود شـجرة جوارهـا لجزمـت أنهـا نفـس البركـة السـابقة، وكانـت ممتلئـة عـن آخرهـا وحولهـا بجـع أو طيـور بيضـاء مـن تلـك الفصيلـة. فأشـار لهـا مبتسـمًا وقـال:

- بحيرة وطيور.

ماذا كنت سأفعل من دونك يا علي؟!

شـكرته وبـدأت في الصيـاح آمـرًا إيـاه بالاتجـاه رأسًـا إلى المعسـكر، وأن يتذكـر أن يخبئنـي في صنـدوق السـيارة قبـل الوصـول بمسـافة كافيـة. آخـر مـا أرغبـه أن أدخـل المعسـكر مـن البوابـة مبتسـمًا متظاهـرًا أننـي «عائـد مـن جولـة سـياحية لمشـاهدة الـبرك في بلدكـم الرائـع.. أرغـب في النـوم الآن.. عـن إذنكـم».

تحركنـا مـن جديـد في تلـك الصحـراء، راغبًـا في زيـادة سرعـة السـيارة أضعافًـا للعـودة سريعًـا للمعسـكر لأنهـي كل هـذا. جهـلي باتجاهـات وخرائـط وجغرافيـا المـكان زاد مـن توتـري. لا أدري هـل يجـب أن تسـير هكـذا أم هكـذا.. خصوصًـا أن السـائق يتميـز بالبلـه التـام.

صحراء..

صحراء..

صحرااااء.

ثـم صـار الطريـق يتوسـط سلسـلتين مـن الجبـال تبعـد كل منهـما عـن الطريـق بمسـافة ليسـت بالصغـيرة. أوقـف السـيارة مرشـدي السـياحي وترجَّـل كالمجـذوب، وأخـذ يسـير حثيثًـا نحـو الجبـال

في الناحيـة اليمنـى. ظننتـه سـيتبول، لكـن مسـافة ابتعـاده كانـت تـزداد. ناديتـه ولم يـرد أو يلتفـت، صحـت باسـمه فالتفـت إليّ شـبه مذعـور واضعًـا إصبعـه بحـزم أمـام شـفتيه علامـة أن اخـرس، وهـو يشـير نحـو الجبـال التـي يسـير إليهـا. ترجلـت مـن السـيارة كاظـمًا غيظـي وسرت وراءه متوقعًـا أن يقـف بفخـر بعـد تلـك الجبـال ويشـير نحـو شيء ويقـول لي «تمسـاح» أو «سـلحفاة»، فأهـز رأسي وأضربـه لكمتـين وأشـكره ونعـود، لكنـه وصـل قبـلي إلى ممـر ضيـق بـين الجبـال رأيـت البحـر مـن خلالـه. ولم يسـتمر عـلي في سـيره نحـو البحـر، بـل توقـف متواريًـا كمـن يتلصـص برأسـه. اقتربـت بحـذر حتـى صرت جـواره واسـترقت النظـر، لأجـد آخـر شيء يمكـن توقعـه.. عـشرات مـن النسـاء والفتيـات يسـتحممن في البحـر أو جالسـات عـلى الرمـال.

كـن يرتديـن ملابسـهن لكـن كاشـفات شـعورهن، وكُـنَّ في حالـة مـرح عمومًـا.

أخـذت أرجّـه بعنـف وهـو كالواقـع تحـت تنويـم مغناطيـسي. حاولـت انتزاعـه مـن مكانـه ليسـتفيق، فقاومنـي بشـدة، فكدنـا نتعـثَّر، فحاولـت جذبـه بعيـدًا، فجذبنـي بعنـف وأمسـكنا بتلابيـب أحدنـا الآخـر، فتعثرنـا معًـا وتدحرجنـا قليـلاً.. في اتجـاه البحـر!

صرنا مكشوفين!

قبـل أن نفكـر في الزحـف لنتـوارى مـن جديـد، انطلقـتْ صرخـة أنثويـة تشـقّ سـكون تلـك الصحـراء، أتبعتهـا موجـات متتاليـة مسـتمرة مـن صراخ المزيـد مـن السـيدات الـلائي تـم اخـتراق اسـتحمامهن برجلـين متلصصـين.. عـلى اعتبـار أن مـن معـي رجـل!

لا مجـال للزحـف الآن، خصوصًـا بعـد أن اتضحـت نوايا السـيدات

بالهرولـة.. علينـا لا منـا.. غضبًـا لا خوفًـا!

نهضنـا وهرولنـا قـدر مـا اسـتطعنا عـلى تلـك الرمـال نحـو الممـر، ثـم نحـو الطريـق الـذي تربـض بـه سـيارة النجـاة، ومرشـدي اللعـين كان سريعًـا بحـق، كان يجـري كالغـزال اليافـع الهـارب مـن فهـد. تناقصـت المسـافة بينـي وبـين الغاضبـات وازدادت بينـي وبـين عـلي. كان الوصـول للسـيارة أمـرًا مصيريًـا، لا مجـال للانتبـاه لقلبـي ورئتـيّ ومآسيهما.

ركض.. ركض.. ركض.

سبقني عليّ للسيارة.

واقترف ما هو أسوأ من أسوأ كابوس قد يخطر لي في أي بال!

كتب بيديه وساقيه وتخلفه العقلي شهادة نهايتي.

أدار السـيارة مذعـورًا وانطلـق بهـا بأقـصى سرعـة، مُحلّفًـا عاصفـة ترابيـة مهولـة ابتلعـت صراخ السـيدات الـلائي تتطاردننـي، وصراخي المجنـون أهتـف باسـمه مـرارًا مهـرولاً مـن دون توقـف.

أصبـح الإغـماء أو حتـى المـوت رفاهيـة صعبـة المنـال، حتى السـير ليـس مطروحًـا، ولا الجـري عـلى أرض صلبـة، ناهيـك بالوقوف.

مقطـوع الأنفـاس اسـتمريت في الركـض، وزدت مـن سرعتـي متجهًـا نحـو الجبـال في الجانـب الآخـر مـن الطريـق. لم أنظـر للـوراء أبـدًا، والجبـال تقـترب، والشـمس تغيـب رويـدًا رويـدًا، وأنفـاسي المتلاحقـة تمـزق صـدري. تباعـدت أصـوات النسـاء، ولم يدفعنـي هـذا لا للنظـر ورائي ولا للتخفيـف مـن سرعتـي. وصلـت الجبـال أخـيرًا، وانسـليت داخلهـا فيـما يشـبه ممـرًا، واختفـت الشـمس.. وأظلـم العـالم.. ومسـتقبلي.. ومصـيري.

-٢٣-

وكأنها لعنة أصابتهم أجمعين!

تراقبهم فتظنهم قومًا يتغذون على الأحجار لا الغذاء، من فرط شغفهم بها. تولى الأخ الذي صار كبيرهم، قيادة تلك العملية المحمومة ذات النهم الذي لا ينتهي. كان وسطهم كمشرف العمال والقائد معًا. نظرة من عينيه هي ما تسمح لهم بالتوقف لتناول الطعام، ونظرة أخرى يهرعون بعدها لاستكمال الأعمال، وإن كان هذا الوضع الجديد متوافقًا مع ما أصابهم من سعار، فلم يلق أي اعتراض أو حتى تذمر. قسَّمهم إلى مجموعات وسلاسل بشرية طويلة، ينقلون الأحجار من شخص لآخر حتى تصل مستقرها في وسط أرضهم. مجموعات أخرى تتولَّى الفرز والرص. مجموعات أخرى مهمتها تهذيب تلك الأحجار وفرز الهش من الصلب، ومجموعات أخرى تخلط التراب بالطين بالماء لربط الأحجار عند بنائها، بينما مجموعات أخرى تقوم بعملية البناء نفسها، وهي منقسمة لمجموعات أصغر. ومع الوقت نفدت الحجارة بأسفل الهضبة، وأصاب الهلع أبناء القبيلة كافة.

وكان الرجال في وادي المذنبين النادمون النائحون في حالة حماس مستمر متصاعد، وكلما أمعنوا في طقوس الاستغفار تلك، وكلما اقترب يقينهم من الغفران في الاكتمال، ازدادوا شعورًا بتأنيب الضمير أكثر وأكثر، فيزدادوا انغماسًا وإخلاصًا في جلد الذات، وحماسًا في الدوران، وعمقًا في الزفرات والهمهمات.

وبعينين يملؤهما الرجاء والأمل والدموع، نقل «توبيا» بصره بين الحشود وكبيرهم جيئة وذهابًا، أخذ صدره يعلو ويهبط، ويعيد له النظر راجيًا إياه في البدء في طقوس الانضمام تلك. منعته دموعه من رؤية عينيه المشتعلتين غضبًا، فظل مُتخشِّبًا لبرهة قبل أن يستفيق على ركلة عنيفة من قدم كبيرهم إلى صدره، أطاحت به إلى الوراء قبل أن يرتطم بالأرض. وقف «توبيا» سريعًا في ذهول معجز، بعد أن اختبر لأول مرة في حياته أن يتعرض هو للعدوان، وهي -للمفارقة- المرة الأولى في حياة الأخ التي يشعر فيها بالغضب، ويترجمه إلى فعل اعتداء. تضخمت تلك الجذوة في صدره فانطلق من جديد نحو «توبيا»، الذي أضاف لخبراته فعل الركض هروبًا.. وهو يكاد لا يصدق.

أما «يون» فبمجرد استيقاظها اشتمت رائحة غدر في المحيط، فانتفضت ناهضة بعد أن وجدت طفلتها ليست نائمة في حضنها، انطلقت كالمجنونة في كل الاتجاهات، أنفاسها تتسارع. تسلقت قمم أشجار لتنظر على مدى أبعد، ولا ترى أي أثر، تنزل وتجري هنا وهناك، هرولت نحو كوخ «ديس» لتجده فارغًا، وبجانبه جثة الجدي الأبيض مخنوقا بسيقان نباتات مطاطية. ركعت «يون» أرضًا ودفنت رأسها في التراب، وأخذت تنوح وتولول، ولا تدري أي فعل سيئ اقترفته في حياتها لتتلقى كل هذا؛ هي لم تفعل أي فعل في الأصل. اشتعلت جمرة الغضب في صدرها وهي تنتحب، تنفست كل الهواء ونظرت للسماء وأطلقت صرختها الأولى منذ خُلِقَت، صرخة مرعبة في طولها وقوتها وحِدَّتها، صرخة أطارت الطيور وحركت الغيوم وهربت على أثرها الحيوانات، صرخة يقرر المرء بعدها ألا يظل على حاله، صرخة شقَّت الأجواء والمسافات، صرخة ملأت

الأرض واخترقت أذنيّ الأخين، كل في أرضه.

...

فتحت «يون» عينيها بعد انهيار طويل وبكاء أقرب لنزف الدماء، وقفت بصعوبة شديدة كمن يتعلم الوقوف والسير لأول مرة، وأصبح هدف كل ما تبقى لها من عُمر هو تمشيط الأرض كافة بحثًا عن ابنتها.. للدقة، سلخ «ديس» حية وجعلها تتمنى الموت ثم قتلها، ثم استرداد ابنتها. وقبل أن تنطلق في كل الأماكن، قامت بالتحضيرات اللازمة للانتقام من الفاعل الأصلي لكل هذا.. قاتل حبيبها الحنون الذي كاد يكون زوجها في حياة أفضل.. «توبيا».

يومان مرَّا قبل أن يظهر ذلك اللعين، شاردًا كالعادة محَطَّمًا على غير العادة. لم يلحظ غياب «ديس»، ولا اختفاء ضوضاء طفلته واختفاءها شخصيًا، لم يرَ تلك النظرة النارية في عيني «يون»، لم ينتبه أنها المرة الأولى في حياته التي تدعوه فيها «يون» للغابة. استجاب لها شاخصًا. قوي كالخرتيت وغبي كالرمال. اتجها إلى المكان المنشود، وجسد «يون» الضئيل يرتجف من كتمان ما بداخلها وما هي مقبلة عليه. تجردا ثم اعتلاها ثم ولج. وبقى على هذا كما العادة. لكنها المرة الأولى التي تقبض عليه «يون» بأطرافها وتعتصره؛ شهق كمن يحتضر وزاغت عيناه. أتبعته «يون» بانقضاضة بشفتيها على التقاء عنقه بكتفه لتمتص تلك النقطة الحساسة؛ خارت معظم قواه وهو يزمجر تمهيدًا لأن ينزف روحه، ولم يقاوم ذلك الانتشاء الذي يعصف به لأول مرة. إلى أن لمح في شبه الغيبوبة تلك، ذراع «يون» مفرودة بأكملها أرضًا، تنبش بأناملها التراب بإصرار، وهي تستطيل بجسدها وذراعها كالمحمومة في

ذلـك الاتجـاه. لمحـت هـي أنـه لاحـظ، فصـارت في ورطـة، وإن لم تُخـفِ، بـل اسـتعر غضبهـا أضعافًـا، فانقضـت عليـه انقضاضـة أنثويـة أقـوى مـن سـابقتها، سـحبت المزيـد مـن قـواه، لكنهـا لم تبـدد انتباهـه عـما هـي تنويـه. حـاول جرَّهـا بعيـدًا عـن بقعـة النبـش تلـك فلـم يسـتطع، وفـردت هـي يمناهـا عـلى أقصاهـا حتـى بـرزت عروقهـا وبالـكاد دسـت يدهـا في الـتراب لتخـرج ممسـكة بقـرن صديقهـا الوحيـد الـذي رحـل خنقًـا. أدمـى يدهـا بالخطًـا سـابقًا، وسـتنتقم هـي بـه الآن عمـدًا.. هـذا هـو السـلاح الوحيـد الـذي تعرفـه وتضمنـه.

أمسـكت سـلاحها بقبضتهـا بعـزم لـن يلـين، ولم يحتـج «توبيـا» إلى توضيـح ليفهـم مـا تنتويـه. غريـزة البقـاء بداخلـه ألهمتـه أن يحـارب النـار بالنـار، فكبّـل يمناهـا أرضًـا بيـسراه، وعينـاه تزوغـان وتـأتي، ثـم خـرج مـن داخلهـا، وقبـل أن يكتمـل الخـروج انقـض بـه مـن جديـد لأعماقهـا، لتشـعر «يـون» بـألم فـاق كل آلام عمرهـا مجتمعـة، فصرخـت مـن أعماقهـا لتنفـث الآلام التـي شـعرت بهـا، لكنهـا لم تتخـلَّ عـن سـلاحها. تـدري تمامًـا أن ارتخـاء قبضتهـا سـيكون متبوعًـا بنهايتهـا. لم يكـن يعنيهـا المـوت تمامًـا قـدر مـا يعنيهـا ابنتهـا والثـأر معًـا. ولم يرحمهـا «توبيـا»، الـذي هـو بالـكاد أيضًـا يقـاوم، فكـرر هجمتـه بحذافيرهـا مـن جديـد، لتنطلـق نفـس الصرخـة مـن «يـون» التـي أدركـت أن قواهـا سـتخور تمامًـا، فهجمـت نفـس الهجمـة باعتصـار أقـوى وامتصـاص أعنـف، وزادت عليهـما أن نبشـت بأظافـر يسراهـا في ظهـر «توبيـا»، الـذي زاغـت عينـاه مـن جديـد، وركـز مـا تبقـى مـن قـواه في تثبيـت يمنـى «يـون» الممسـكة بالسـلاح في الأرض. وقبـل أن يسـتجمع بعضًـا مـن طاقـة يهجـم بهـا عليهـا مـن جديـد طاعنًـا أعماقهـا، كانـت «يـون»

استجمعت كل ما بداخلها لتقلبه وتعتليه وتحرر يدها فترفعها عاليًا، وقبل أن تهوي بها عليه استرد بعضًا من قوة ليقلبها من جديد ويعتليها هو، ليستخدم سلاحه الوحيد ويطعن أعماقها طعنات متتالية، تصرخ على أثرها «يون» مرارًا. أدمت أحجار الأرض ظهريهما، ولم يباليا.. هدف كل منهما هو قتل الآخر. استمرت الحال سجالاً هكذا، تراهما تظنهما قطًا بريًا وغوريللا وُلدا ملتصقين ويتقلبان كممسوسين يسعيان للتخلص من الالتصاق.

خوار وصراخ.. إيلاج وخمش.. اعتصار ودماء.

إلى أن فعلتها «يون» في نفس اللحظة التي ارتطم فيها رأسها بعنف في حجر صلد. طعنت «توبيا» بخنجرها في جنبه طعنة غير مكتملة النفاذ، أتت على ما تبقى له من قوى، وصرخ من أعماقه. فقد كلاهما طاقته تمامًا، إلا ما يكفيهما للتنفس. ساد الصمت بعد ضجيج، إلا من دقات قلبيهما. اسودَّت الدنيا وأضاءت وأظلمت وسطعت في عيني «يون» جرّاء الارتطام، وظلت أرضًا فاقدة لأي قدرة على الحراك. ووقف «توبيا» يجرجر ساقيه مترنحًا نحو العقاب الشاعري الذي قرر أن «يون» تستحقه، وسار صوب الحجر الذي هشَّم به رأس صديقه ابتغاء تلك المرأة، التي طعنته حالاً.. سيجعلها تلحق به بنفس السلاح في نفس المكان. و«يون» تراه بين رموشها وتراقب دماءه المنهمرة من جنبه، ولم تجزع من حمله للحجر بعد معاناة وهو يخور، فقط جزعت أن تموت هي قبله. تقلصت أمانيها وأصبحت أن يموت هو بطعنتها، لا تموت هي بحجره.. نفس الحجر الذي دمر حياتها حرفيًا.

صمت..

دقات قلبها وصوت أنفاسها..

رؤية تغيب وتأتي..

«توبيا» يترنح حاملاً الحجر وهو ينزف دماء كالشلال، ويقترب وهو يخنفر ويزمجر.

و«يون» لا تقوى على حتى النهوض.

وقبل أن تغمض عينيها استسلامًا وهي تذرف دموع المرارة، وجدته واقفًا جوارها، ومن ورائه قومه أجمعين، تابعين صاغرين.

مشهده بعينيها من الأسفل بدا كعملاق والأشجار الشاهقة من ورائه، ممتلئًا بالهيبة والشغف معًا. لم يلتفت إلى «توبيا» القادم ببطء حاملاً سلاحه نازفًا دماءه.. فقط ظل هو و«يون» في تأمُّل متبادَل، ونطق للمرة الأولى منذ خُلق:

- ارضخي لي.. اتبعيني.. ولكِ ما تبغين.

بوهن تفتح عينيها، وبعنف تتنفس تقاوم الاحتضار.. فاستمر هو :

- أنا قائظ.. ساحر الأنفس.. بيدي القوة.. أنا قائظ.. فاتبعيني.

قالها بصوت عميق عمق الدهر، مليء بإغواء القوة. وقبل أن تومئ برأسها قليلة الحيلة تلك الفتاة، رجّت الأرجاء صيحات وتكبيرات القوم النادمين، مهرولين في جماعات نحوهما، يقودهم كبيرهم «واعظ».

انتفض «قائظ» ومعه قومه المُغيَّبون، و«واعظ» لا ينتوي تكرار الخطيئة الأولى، عازمًا عزمًا لا يلين أن يصرع الشر، وقومه

أجمعـون مـن ورائـه مهرولـين. عنـد اقترابهـما أطلـق كلاهـما صيحـة غضـب وعـدوان، وصـاح القـوم أجمعـون خلـف سـيّديهما، و«توبيا» مترنحًـا يقـترب حامـلاً حجـره، و«يـون» تتمسـك بأنفاسـها. وسريعًـا اختلـط الحابـل بالنابـل وبـدأت المطحنـة الكـبرى.

-٢٤-

عندما وصل الشاب في سرده لتلك النقطة، تحولت ملامحه وزاغت عيناه وتلاحقت أنفاسه، وهو يتلفت كالمحموم فاغرًا فاه عن آخره. التقط كوب القهوة كالمسعور وارتشف منه بجنون ليفاجأ به فارغًا، فألقاه خلفه وهو يتحسس رقبته ويهرش لحيته وشعره بحماس، واستطرد بتوتر بالغ:

تائه في الظلام وسط جبال في مكان لا أعرفه في جزيرة لبلد نووي يتربص بالجواسيس. تكوَّرت أرضًا وحبست أنفاسي. وطاويط حقيرة انطلقت بعد أن اكتمل الظلام؛ صرخت، زحفت لأتوارى في مكان آخر بعد أن فضحت موقعي. تقوقعت في شق آخر، لا أرى شيئًا لكن ملمس الثعابين لا يحتاج توضيحًا؛ صرخت وهرولت وأنا أقع وأقوم وأقع وأزحف. نتوء يصدم جبهتي ويدميها، ولا أتوقف حتى أتوارى من جديد، انطلقت في صراخ هيستيري.. أين أختبئ الآن؟ وكيف لي أن أخرج من متاهة الجبال؟ وإذا خرجت فأين أذهب؟ وإذا ذهبت فماذا أفعل؟ صراخ أدمى حنجرتي. وقفت لأهرول وسط الشقوق والممرات الضيقة. لمحة متسللة من ضوء القمر أرتني ذلك الرجل الذي يهرب. من هذا؟ أم هذا أنا مستقبلاً؟ أم هذا تائه مثلي من عشرين عامًا؟! لن أذهب في اتجاهه، لن أجري نحوه، لن أدخل ذلك الممر. استدرت لأهرب للوراء لأصطدم في الظلام بعنف كاد يهشمني بذلك الراكض نحوي.

هدأ الشاب قليلاً وأغمض عينيه وأخذ يفرك جبهته، ثم تغيّر

صوتـه وقـال وهـو ممسـك بتلابيـب نفسـه يرجهـا بلهجـة خشـنة مذعـورة:

- سأعود.. يجب أن أعود.

ثم عاد صوت الشاب لأصله وهو يقول:

- اصطدااااام.. أم هو صدمة.. أم استفاقة؟!

جان هذا أم روح هائمة؟ ارتبط مصيرانا، تلبَّس أحدنا الآخر.

ثم عاد الصوت الخشن صائحًا بغضب جنوني:

- عالمـك غريـب.. قبيـح.. مـكاني هنـاك مـع الأنـوار.. وسـط الجبـال.. تحـت إمـرة سـيدي «واعـظ».

اصطدمنـا وصَمَـت الكـون، وسـمعتها بوضـوح، تلـك الهمهـمات مـن ممـرات الجبـال.

- يلقننـا الاسـتغفار والتسـابيح والتكليـف، ذلـك التكليـف المُخلِّـص، لا بـد مـن إتمامـه.

همهمات وتكبيرات نادمة.. هادئة لكن باكية.

- عالمك غريب.. قبيح.

كالسـحر هـو.. وقفـت كمـن يتعلـم السـير لأول مـرة. أجسـده هـذا وأنـا بداخلـه، أم هـذا جسـدي وهـو آمـره؟

- عالمـك.. قائـظ مـر مـن هنـا.. قائـظ كبـير هنـا.. قائـظ منتـصر هنـا.

كالمسـحور أخـذت أتمتـم وأنـا أسـير نحوهـم، ونحـن نسـير نحوهـم، ونهـز رأسـينا ذات اليمـين وذات الشـمال.

- أعدني.

- الله.

- هيا.

- حيّ.

- نعووووود.

- الله.

- أعدني.

ارتجاف كبير اعتراه وهو يشعل سيجارة أسعلته بشدة، عاد لصوته ولهجته ونظر للكاميرا بعين حمراء كالدم وصاح:

- ماذا تعرف عن روحك؟ أصولك! حروبك الحق! أنا رأيتها وعشتها! تكشّفت لي وتجسَّدْت فيها! وسأعود إليها! سنعود إليها!

أخذ يفرك عينيه وهو يرتجف ويتصبب عرقًا، وأخذ الصوت الخشن يردد مرارًا بذعر هادر:

- التكليف! الخلاص في التكليف!

أخذ أنفاسًا عميقة متتالية لتمالك أعصابه، وقال دون أن ينظر للكاميرا:

- سنشرح لوالديَّ كنه ما رأيت.. ونغادركم جميعًا.

واستلم الصوت المشروخ الحديث ساردًا:

- بدأ كل شيء عند أبيهما.. حارس الزمن.. كان الكون في أبهى شكل وأدق اتزان.. وكانت مهامه هي الحصر والتدوين والتأمل

والتسبيح.. إلى أن أراد أن يشاركه المشهد أحد.. وليته ما أراد!

واختل توازن الكون.. وكان صراعًا داميًا بينهما.. الأخين. أشعل نيران.. يلاحقه.. وسوس للرجل.. «يون» مسكينة.. صاحب الشر يعيث.. «ديس» تقهر «يون» المسكينة.. «توبيا» شارد نادم.. صاحب الشر يعيث.. وأنا في الجبال مع زمرة النادمين، نُسبِّح، نستغفر، وكبيرنا «واعظ»، يقودنا ويلهمنا ويستغفر معنا.. ازداد عددنا، علا صوتنا، أراحنا وأتعبنا نحيبنا، ولا يفارقنا ندمنا.

صاحب الشر وسوس للقوم، أغواهم بالبنيان فامتلكهم. ازداد نيرانًا وشرًا، «قائظ» هو.. «توبيا» أدركنا، أراد الانخراط معنا من دون نفس لوَّامة، صارعه سيدي «واعظ»، وعاد من حيث أتى ليزداد قبحًا.. «ديس» تقهر «يون» المسكينة، سلبتها رضيعتها، وقتلت رفقتها، وهجرت مكانها سائحة في الأرض.. «يون» مسكينة.. «يون» امتلكها عمى الغضب.

وفي يوم مشهود، وبإمرة سيدي «واعظ»، كلفنا جميعًا بالتحرك نحو أرض «توبيا» و«يون». شر عظيم جديد سيرسخ في المكان، كُلّفنا بصدِّه وتطهيره. صراع هناك بلغ صراخه السماء، و«قائظ» لحقهم ومعه قومه التابعون. سيمتلك «يون» الجريحة المسكينة، عارضًا لها القوة والانتقام، و«توبيا» الذي ينزف دماء يقترب منها حاملاً نفس حجر أخيه. بلغنا الأرض، واشتعل الأخان واشتبكا. «واعظ» ونحن من ورائه، و«قائظ» وقومه المسحورون التابعون. تمزيق وصراخ ودماء وإرادة. هذه هي المعركة الأخيرة. لن تتسع الأرض لكليهما.

وفي خضم تلك المعمعة، استطعت بلوغ «قائظ» قبل أن يفتك بسيدي «واعظ».. وقبل أن أصرعه ألقى «توبيا» حجرًا

ثقيـلاً عـلى رأسي.

اختفـى كل شيء.. وصرت حبيـس الجبـال، أنـا وقليـل مـن الأوَّابـين المسـتغفرين.. بينـما نـار معركـة الحـق تـدور.

وعاد صوت الشاب لأصله:

- وقبل أن يعود لمعركته.. لنصرة سيده والخير.. اصطدمنا.

- أعدني.

وأثنـاء ولولـة بطاريـة اللابتـوب معلنـة قـرب وفاتهـا الحتميـة، نظـر الشـاب للكامـيرا للمـرة الأخـيرة بعينـين تقطـران هـمًّا وكلـلاً، وقـال:

- وداعًـا.. وطنـي وأهـلي وأصدقـائي ومبنـاي.. وداعًـا.. هنـاك يحتاجونـي.. هنـاك سـأنفعهم.. سـننتصر للخـير.. ونبـدأ بالبنـاء.. لـن أبنـي برجًـا، لكـن سـأبني بيوتًـا تـأوي.. هنـا لا مـكان لي.. سـامحوني.. ثقـوا أننـي هنـاك أفضـل.. وأنفـع.

وداعًا.

وأغلـق اللابتـوب، وبحركـة ثقيلـة منهكـة، نـزل مـن السـيارة أخـيرًا.

النهـايـة

وهذا ما حدث..

بعـد أن أظلمـت الدنيـا عليـه في الجبـال، انتابتـه هيسـتريا عارمـة، وقـضى سـاعات يتخبـط في الممـرات ويـصرخ وينـزف مـن روحـه، حتـى بلـغ الانهيـار مبلغـه، ارتمـى أرضًـا لباقـي سـاعات الليـل، مـن دون أن يغـشى عليـه. وعندمـا أشرق النهـار التـالي كان عـلي أمـام ذلـك الجبـل يناديـه بـإصرار لسـاعة كاملـة بصـوت رددتـه الجبـال، صـبر كثـيرًا ونـادى بـإصرار، حتـى خـرج الشـاب مـن الجبـال كالمسـحور، وحالتـه العامـة غنيـة عـن أي وصـف. بشـفقة وتأنيـب ضمـير خبَّـأه عـلي في خزانـة السـيارة وسـط الصناديـق كالعـادة، وهـو في استسـلام كامـل مثـل دميـة قطنيـة، عـادا للمعسـكر، ولا كلـمات ولا طعـام ولا شراب ولا أي شيء، جـاءت السـاعة الرابعـة، وجـاءت التأشـيرة المنتظـرة. تـولّى عـلي الأمـور جميعهـا حتـى ركـب الشـاب الحافلـة التـي سـتقل الناجـين للمطـار، وهـو في حالـة تجمُّد كاملـة. في الطائـرة عندمـا بـدأت المضيفـة الـدؤوب في تعليـمات الطـوارئ عنـد حـدوث كـوارث، شـعر أنـه يشـاهدها ويشـاهد كل شيء مـن خلـف جـدار، بينـما صـوت جديـد غريـب بداخلـه ملتـاع غاضـب يُحدِّثـه بوضـوح، تـارة متوسـلاً وتـارة مُهتاجًـا؛ آمـرًا إيـاه بتخليصـه مـن الأسْر بداخلـه في ذلـك العـالم الغريـب، وإعادتـه لمكانـه وزمانـه ومعركتـه وكفاحـه.

وفي مطـار دبي كان شريـف في اسـتقباله، بعدمـا علـم بانتهـاء إرسـال التأشـيرة في الفاكـس بنجـاح، وكتـم صدمتـه مـن مظهـر

صديقه، وتظاهر بالترحاب والسعادة لرؤيته، وهو يتحرك بآلية دون كلمات. قرر شريف أن يأخذه لمسكنه ولا يتركه هكذا لنفسه. طوال الطريق رماه بعشرات الأسئلة وهو يرد بكلمات مقتضبة على بعض الأسئلة، متجاهلاً البعض الآخر حينما كان يعلو الصوت بداخله، خشية أن يجيبه جهارًا ويفتضح الأمر.

في استوديو شريف خرج من حمامه، ليجد صديقه نائمًا بملابسه وحذائه على فراشه، فتركه وقضى يومه ونام لاحقًا على المقعد الوثير. وفي ذلك الحلم صال الصوت الداخلي وجال في رؤيا الشاب، لم يحكي له حياته وعالمه وتفاصيلهما، بل اصطحبه هناك، وعاش كل شيء بوضوح وملمس ورائحة وصوت، ارتاح كثيراً لهذا العالم، رغم ما به من ضغائن ومؤامرات، وسال لعابه أمام هؤلاء القوم الشغوفين بالبناء، أيقن أنه ما ينقصهم وهم ما ينقصونه، بعد تصفية النزاعات الدائرة وتسويتها. وفي وسط كل هذا اهتزَّ بشدة من محاولة شريف لإيقاظه هاتفًا أنه لم يوقظه لصلاة الجمعة، لكنه لن يتركه ليُكمِل أربعًا وعشرين ساعة نوم. نهض بذهن مشوَّش ونفس مضطربة، وقبل أن يتفوَّه بكلمات كان قد اتخذ قراره بثقة ويقين افتراضيين، كاملين، وما أن تركه شريف ليستحم، حتى أخذ هاتفه المحمول وفتح فيسبوك، ولم يفكر أو يلحظ أنه الخاص بشريف وليس خاصته.. وكتب منشورًا مختصرًا:

- رسالتي لأبشع دنيا.. قصتي.. للي يعرفني واللي ميعرفنيش.. هحكيها على يوتيوب الساعة أربعة بالظبط.. قبل ما أنتحر.

وترك الهاتف وأخذ مفاتيح سيارة شريف، وقبل أن ينطلق هاربًا لحظ موبايله في الشاحن منذ يوم، فالتقطه دون تفكير وهرع خارجًا.

خرج شريف من الحمام على رنين اتصال مستمر من والدته في مصر، وما أن رد حتى انهارت أمه تمامًا في صراخ وعويل وبكاء هيستيري بكلمات لم يفهم منها حرفًا، تملَّكه الهلع وهو يتقافز صائحًا محاولاً تهدئتها ليتبيّن المصيبة، ولم تتوقف هي لحظة عن سكب الكلمات الممزوجة بولولة ملتاعة، بينما اتصالات متتالية لا تتوقف عن الدخول في الانتظار من كثير من أصدقائه في مصر ودبي، ما زاد من توتره حتى خارت قوى أمه تمامًا، وقالت وهي تنهنه كلمات عن الانتحار والكفر وألا يتركها.. وعندما فهم هدأ من هذا الجانب بعدما أيقن عدم وجود مصيبة عند أهله، وهدأها، واشتعل هلعًا على صديقه. أنهى المكالمة معها ولم يتوقف طوفان المكالمات المنهمرة وهو يلغي الرد، محاولاً الولوج لفيسبوك، حتى استطاع أخيرًا، فقرأ المنشور وجاءه اتصال جديد رفضه، وأثناء كتابة منشور آخر جاءه اتصال آخر رفضه أيضًا، وكتب كلمتين وجاء اتصال، واستمر على المنوال حتى انتهى من كتابة منشور مختصر:

- رجاااااء محدش يتصل بيّ أنا كويس واللي كتب البوست اللي فات صاحبي.. يا رب ألحقه.

وضغط زر النشر وانطلق، ليفاجأ بمفاتيح سيارته اختفت، فاندفع مهرولاً لا يدري إلى أين يذهب أو ماذا يفعل.. فاتصل بالشرطة.

وما أن كانت الساعة الرابعة، حتى شارك الشاب على صفحته رابطًا لفيديو البث المباشر:

- في الميعاد بالضبط.. ها أنا ذا.. للمرة الأولى، والأخيرة. تُرى من منكم ظنها كذبة، ومن صدقني ولم يكترث، ومن صدقني

ويشاهدني الآن؟ لا يهمني.. لا يهمني إطلاقًا.. لا يهم بأي حال من الأحوال.

وقامت الدنيا ولم تقعد. تم تشكيل غرفة عمليات، وتم التواصل مع إدارة يوتيوب لتحديد هوية IP address لصاحب البث، منها تم تحديد برج الاتصال، والجبل موقع الشاب. وعلى جانب آخر دشّن أحد الشباب صفحة على فيسبوك للدعاء لهذا الشاب، ومتابعة أخباره المستجدة. وعلى الجانب الآخر كان للخبراء النفسيين المشاركين في غرفة الطوارئ اليد الطولى في تخطيط الأمور وتحريكها. وما اتفق عليه الجميع هو ضرورة التحرك السريع لوجود احتمالية كبرى أن يتوقف الشاب عن السرد ويفعلها فجأة، وضرورة عدم مباغتته ولا حتى ظهور أي قوات بالقرب منه، يجب أن يقترب منه أناس يألفهم. أجريت اتصالات محمومة وتمكنت الشرطة من الوصول لشريف وأمنية ورفيق. تم جمعهم في إحدى سيارات الشرطة وانطلقت تشق الأرض نحو ذلك الجبل الذي توافدت عليه قوات إنقاذ كثيفة متوارية ومتأهبة، في انتظار تعليمات التدخّل. بينما فرَقف العمل تشاهد البث المباشر وما مضى منه، وتُحلل ما فيه، وتم التوافق على الخطوة الأولى في عملية الإنقاذ تلك.

على قمة الهضبة، وبعد أن نزل الشاب من السيارة، استنشق كمية كبيرة من الهواء يودع بها دنياه، وبعد تردد قليل أخذ أولى خطواته نحو الحافة والهواء يضربه. ببطء استمر في التقدم، حتى فوجئ بصوت طفولي قريب يناديه باسمه. التفت ليجد طفلة ملائكية بنت خمس سنوات، ووالداها يقفان في مرمى البصر يترقبان حابسين أنفاسهما. بعدم فهم أطال النظر إليها وهي تقترب لتناوله كيسًا صغيرًا، بحذر وبدهشة متناهية

فتحه ليجد بداخله مجموعة من المكعبات. اعتراه عدم فهم وترقب، فطلبت منه الطفلة أن يبني لها بناية.

سكن قليلاً وهو يقلب نظره بينها وبين المكعبات، ثم بدأ بالفعل في تكوين مجسم صغير، ما أن انتهى منه حتى ناوله لها سريعًا صائحًا بأن المبنى يحترق ولا توجد نوافذ: «انقذي الناس»، ضحكت الطفلة ضحكة بريئة صادقة ولم تأخذ البناية، فأخبرها أنه سيريها كيف، وعرف السر بالفعل، حرّر صفوف المكعبات من الالتصاق بما تحتها من مكعبات أخرى، فتمت ولادة النوافذ وإنقاذ السكان، فضحكت الطفلة ضحكة أكبر، قطعتها نداءات شريف القادم من بعيد يجاوره رفيق وأمنية المنهارة في بكاء حار. حدّثه شريف عن مفاجأة تنتظره وحدَّثه رفيق بالفصحى عن كونه من أفضل من عرفهم في حياته، وصاحت أمنية باكية بأنها ستحزن طيلة عمرها إذا لم يحضر هو حفل خطبتها في مصر.

تسمّر الشاب في مكانه بينما هم يقتربون حثيثًا، إلى أن انطلق شريف ركضًا إليه، فجزع الشاب بالفعل وأمسك بالطفلة يحملها وهو يصيح في شريف بالابتعاد، بينما أغشى على أم الطفلة في الحال، وهرع والدها نحوها، ما أخاف الشاب الذي تراجع بظهره نحو الحافة وهو يصيح: ابعدوا.. ابعدوا.

ثم التفت الجميع إلى ذلك الهدير المستمر في الاقتراب، لتظهر طائرة هليكوبتر تواجه الحافة والشاب والجميع، يجلس على حافتها أحد أفراد القوات الخاصة بالزي الكامل، شاهرًا بندقيته نحو الشاب، وسط ذهوله العارم وصراخ أمنية وشريف الملتاعين، وضغط الزناد.

...

بعـد أن أفـاق الشـاب مـن الطلقـة المخـدرة، أصر أهلـه أن يسـتكمل علاجـه في مـصر، وبمجـرد نزولـه مسـتندًا عليهـما مـن سـلم الطائـرة في مطـار القاهـرة كان قـد لاح شـفاؤه في الأفـق بالفعـل، تنفَّـس نفسًـا عميقًـا ممتلئًـا برائحـة دخـان قـش الأرز، لكنـه أسـبغ عليـه عافيـة لم يتوقعهـا. قـضى فـترة إعـادة تأهيـل قصـيرة في مصحـة نفسـية، وقبـل أن يخـرج منهـا للحيـاة ليبـدأ مـن جديـد، كانـت جلسـته الأخـيرة مـع الطبيـب المعالـج، مهنئًـا إيـاه سـاردًا تعليـمات كثـيرة بخصـوص الممنوعـات والمرغوبـات والأدويـة، ثـم أزاح كل هـذا جانبًـا وقـال لـه بـودّ دافـئ:

- افتكـر دايمـا إن الشـاطر مـش بـس هـو الـلي خلـص السـباق وطلـع الأول، الشـطارة إنـك تكمـل السـباق مهـما وقعـت مـرة واتنـين وتلاتـة.. ممكـن أحكيلـك قصـة صغـيرة؟

- آه طبعا اتفضل!

- ضرب الطاعـون قريـة زراعيـة وأصـاب كل أهلها بحُمَّى شـديدة، اسـتمرت أيـام توقـف فيهـا كل شيء.. بعدهـا تشـافوا جميعًـا واحـد ورا التـاني، ورجعـت الحيـاة لأصلهـا، إلا عنـد اتنـين مـن الفلاحـين.. واحـد أصابـه العمـى والتـاني أصابـه الشـلل. قاعديـن قـدام بيتهـم كل يـوم الصبـح بيتفرجـوا ويسـمعوا جيرانهـم أهـل القريـة وهـم رايحـين حقولهـم يشـتغلوا ويزرعـوا وهـما قاعديـن.. وآخـر النهـار يرجـع الفلاحـين سـعداء مبسـوطين وهـما الاتنـين قاعديـن عاجزيـن متفرجـين.

اكتئاب وعجز وعزلة.

في يـوم مـن الأيـام بعـد مـا الأهـالي راحـوا حقولهـم، المشـلول فـاض بيـه، فاتـدور ناحيـة الأعمـى وندهلـه بصـوت عـالي، وقالـه

لازم نتـصرف؛ الأعمـى ابتسـم.. هنعمـل إيـه يعنـي!

المشلول قاله أنا معايا البصيرة وإنت معاك الصحة.

الأعمى قاله أيوة نعمل إيه يعني؟!

المشـلول قالـه تاخـدني كل يـوم عـلى كتفـك، وأنـا شـايف الطريـق والدنيـا، هوجِّهَـك، وتوديـني أرضي نعمـل شـغلها سـوا، ونطلـع عـلى أرضـك نشـتغل فيهـا برضـه.

بعـد كتـير مـن المأمـأة والـلألأة اتفقـوا إن مفيـش مانـع يجربـوا.. بكـرة.

بقليـل مـن الخجـل وكتـير مـن الأحـلام.. اعتـلى المشـلول كتـف الأعمـى، يمـشي الأعمـى خطوتـين ويقعـوا الاتنـين عـلى الأرض، وأهل القريـة عمالـين يضحكـوا، إخواننـا مهمهمـش، جربـوا تاني، والمشـلول فـوق بيعطـي توجيهاتـه «يمـين.. شـمال.. حاسـب طوبـة»، والأعمـى تحـت بينقـل خطواتـه ببـطء وجهـد وهـو بيـوازن نفسـه وصاحبـه، لغايـة مـا وصلـوا الأرض عنـد غـروب الشـمس بعـد فـوات الأوان.

منجحـوش.. بـس ميئسـوش.. قضـوا يومـين في التدريبـات والتفاهـمات، لغايـة مـا قـدروا فعـلاً يكونـوا سـوا جسـد واحـد متفاهـم، بعـين المشـلول وسـاق الأعمـى.

بمنتهـى السـعادة والحـماس، مع أول شـعاع شـمس انطلقـوا أخيرًا، ووصلـوا لأرضهـم في وقـت مناسـب، وقامـوا بالأعـمال المطلوبـة، ويـوم بعـد يـوم بـدأت الأرض في الاخـضرار.. فظهـور المحصـول.. فالحصـاد فالبيـع فالمكسـب.. أخـيرًا.

كانت سعادتهم لا توصف، لم تسعدهم النقود قدر سعادتهم بقهر العجز، واتفقوا يحتفلوا بالليل بدبح فرخة وشويها وأكلها على العشاء.

نظرًا للظلام اتفقوا يذهب المشلول وحده على عكازه لشراء الفرخة، وأثناء طريقه اتحرك بداخله الطبع الإنساني الشهير، وحدّث نفسه بأنه من دون بصيرته وفكرته ما كان للأعمى أن يحصل على أي شيء، أنا أستحق أكتر منه.. ده حتى الفرخة أنا اللي رايح أجيبها.

فشاف ضفدعة كبيرة سمينة، اقترب منها ببطء وانقض عليها ومسكها، وقرر يطبخها للأعمى بدل الفرخة ويحتفظ هو بثمنها.

ذبح الضفدعة، وفي محاولة لإخفاء طعمها أضاف عليها كمية فلفل وتوابل مهولة، ثم راح لصديقه الأعمى يدعوه، وما أن مسك الأعمى بها حتى تساءل عن لزوجة ملمسها، المشلول قاله هي كده، إحنا بس اللي نسينا الفراخ يا صديقي.. حاول الأعمى إنه يقطعها بس كانت متماسكة مبتتقطعش بسهولة، استمر في الشد بقوة، لغاية ما الضفدعة اتقطعت فجأة، فطارت التوابل والفلفل في عينيه، فاسترد بصيرته، وكان أول ما رأته عينيه هو دليل خيانة صديقه.. فاستشاط غضبًا وانقضَّ على صديقه يفتك بيه، اللي من شدة خوفه استرد عافيته ووقف وطلع يجري من صاحبه الغاضب.

استمرت المطاردة في أنحاء القرية لحد ما لقوا راجل كبير، فراح الهارب يتحامى فيه وهو مرعوب وبيتوسل إليه.. «الحقني

أرجوك، عايز يموتني عشان أنا مشلول وعاجز»، الراجل بصِّله وسأله باستغراب «مشلول؟!»، فوصل الغاضب وقال للراجل «سيبني أموته.. بيستغفلني عشان أنا أعمى مبشوفش»، الراجل بذهول سأله «أعمى؟!». سكتوا الاتنين وشرحوله الموضوع باختصار، فانفجر الرجل ضحكًا ثم نظر لهما باحتقار وقال «يعني إنتو ربنا رجَّعلكم الدنيا كاملة وإنتو سبتوها وبتتخانقوا بسبب ضفدعة؟ موِّتوا بعض!» وسابهم ومشي.

هزّ الشاب رأسه بتؤدة كأنه يهضم القصة، ثم قال بخفوت:

- جميلة فعلاً.

مال نحوه الطبيب وسأله:

- القصة دي عن إيه؟ عايزة تقول إيه؟

- واضحة.. بتتكلم عن الصبر والمثابرة وإن مفيش مستحيل ممكن يوقفك.

- أكيد.. بس المضمون الرئيسي بيتكلم عن التعاون. إنت صادق، أنا عارف، في حب خدمة الناس بمجال دراستك وشغلك. بس المنطق بيقول إن الناس هنا هما اللي محتاجين. البلاد المتقدمة أو الغنية خلاص، السيستم اتظبط والدنيا عندهم بتدور في فلكه، التنافسية أقوى طبعًا هناك، بس الشطارة مش في تصميم البرج، الشطارة في تصميم بيت ذكي، بيت يفرح اللي هيسكن فيه، بيت يتبني بأقل التكاليف. هو ده التحدي الحقيقي. ومهما حصل.. مهما وقعت.. افتكر إنك مهما وقعت واتصبت، الشطارة إنك تقوم وتنفض هدومك وتكمل السباق.

التحـق الشـاب بوظيفـة في مكتـب استشـاري فـوق المتوسـط، وانخـرط بالكامـل بعـد أوقـات العمـل في القـراءة عـن المعـماري المـصري الراحـل «حسـن فتحـي»، وعـن أعمالـه وفلسـفته التـي سـمَّاها «عـمارة الفقـراء»، وكيـف أثَّـرت في الخـارج بشـدة وجعلتـه هـو وأفـكاره ومشروعاتـه ذائعـي الصيـت حتـى يومنـا هـذا. اصطـدم أثنـاء قراءاتـه بمجـال معـماري حديـث خلـب لُبَّـه وامتلكـه بالكامـل، يسـمى بالعـمارة الخـضراء، يتنـاول مفهـوم تطويـع المبنـى والطبيعـة معًـا، وتقليـل الآثـار السـلبية لإنشـاء المبنـى أثنـاء وبعـد تنفيـذه عـلى الإنسـان والطبيعـة عمومًـا، وتطويـع عنـاصر المبنـى ليتكيـف مـع متطلبـات الإنسـان بأقـل قـدر مطلـوب مـن الطاقـة الصناعيـة. قـرأ وبحـث وقـرأ وهضـم ودرس الموضـوع أكاديميًـا وتملكتـه رغبـة عارمـة أن يضـع كل هـذا العلـم محـل تطبيـق فعـلي. ودون مقدمـات أو أسـباب واضحـة اسـتيقظ في أحـد الليـالي في الثالثـة صباحًـا، قـام بهـدوء وأضـاء أباجـورة مكتبـه، وفـرد لوحـات بيضـاء، وأمسـك أقلامـه وأخـذ يرسـم الـبرج الـذي رآه في خيالـه يومًـا مـا وكاد أن يقـضي عـلى حياتـه، بهـدوء دون رعونـة، جـرّ خطًّـا وراء خـط، مسـح قليـلاً بثبـات، ورسـم خطوطًـا أكـثر دقـة واقترابًـا لرؤيتـه، كأن الـبرج تجسـد في مخيلتـه صلبًـا وهـو فقـط يرسـمه لا يصممـه. وبعـد خمـس سـاعات كان يرسـم الخـط الأخـير وعينـاه مغرورقتـان بالدمـوع، وهـو يتسـاءل إن كانـت تلـك رؤيـا أخـرى أم حقيقـة. انتهـى وأخـذ يتأملـه.. نعـم هـو.. أجمـل مبـاني العـالم. شـعر بـه يبادلـه النظـرات وهـو يقـف بثقـة وشـموخ. تنـاوب الشـهيق والزفـير بعمـق وهـدوء، عكـس مـا بداخلـه تمامًـا، ثـم علَّـق اللوحـة بجـوار خزانتـه، وقـام بنفـس روتينـه اليومـي الجديـد، وفـور وصولـه للعمـل طلـب لقـاء مديـر قسـم التصميـمات، وعـرض عليـه رغبتـه في تطبيـق العـمارة الخـضراء في المـشروع الجديـد الـذي

كُلّـف بـه. واجـه الصعوبـات المعتـادة وعبرهـا جميعًـا، وانخـرط تمامًـا في العمـل في ذلـك المـشروع وتلـك الأفـكار الجديـدة، وفي بيتـه انخـرط أكـثر في صنـع ماكيـت مجسـم لناطحـة سـحابه المفضلـة.

...

نجـح مشروعـه ذو المفاهيـم الجديـدة نجاحًـا مدويًـا، مـا أدى لتنصيبـه مديـرًا لقسـم جديـد في الشركـة يتعلـق بالمشروعـات المتعلقـة بذلـك التكنيـك، الـذي انهمـرت طلباتـه بالفعـل عـلى المكتـب بسـببه. أمسـك بالنجـاح الـذي أصبـح ثـلاثي الأبعـاد، وزاده هـذا طاقـة وقـدرة عـلى مزيـد مـن الاطِّـلاع والبحـث، بـل والتطويـر ونـشر أوراق بحثيـة متعلقـة بهـذا الشـأن.

...

أثنـاء تصفحـه عـلى الإنترنـت شـاهد إعلانًـا عـن مسـابقة لتصميـم ناطحـة سـحاب في هونـج كونـج، كان مـن متطلباتهـا التصميميـة مراعـاة معظـم قواعـد العـمارة الخـضراء. بعـد أن عـادت دقـات قلبـه لمعدلاتهـا الطبيعيـة، التفـت للماكيـت الـذي اكتمـل منـذ أيـام.. وأطـال النظـر.

...

بعـد أن توقـف عـن الارتجـاف بعدمـا انتهـى مـن قـراءة الرسـالة الإلكترونيـة التـي حملـت خـبر فـوز تصميمـه بالجائـزة الأولى، وتفاصيـل وترتيبـات زيارتـه إلى هونـج كونـج التـي سـتطول لعـام، للعمـل عـلى تطويـر وتعديـل بعـض العنـاصر، والعمـل عـلى كثـير مـن التفاصيـل، قـام وتوضـأ وصـلى وشـكر ربـه كثـيرًا.

بعـد أن ودع والديـه وداعًـا حـارًا عـلى بوابـة المسـافرين، جـرّ حقيبتـه الوحيـدة وهـو يسـير بتثاقـل متذكـرًا زيارتـه الأولى لنفـس الصالـة، ومشـاعره وأفـكاره حينهـا، تباطـأت خطواتـه بشـدة.. توقـف واسـتدار.. ولم يبصـق تلـك المـرة، بـل اسـتودع ربـه بلـده، واعـدًا إيـاه بالعـودة القريبـة، ماسـحًا دموعـه، اسـتدار واتجـه نحـو الطائـرة. وبعـد الإجـراءات وأثنـاء الانتظـار أجـرى اتصـالاً بصديقـه شريـف في دبي، وبعـد التحيـات وكثـير مـن السـباب، قـال لـه:

- بقولك يا شريف.. كنت عايز أقولك حاجة مهمة.

- اتفضل يا حبيبي.

- هـي عاديـة بـس حسـيت إني عايـز أقولهـا ومعرفتـش أقولهـا لمـين قلـت أكلمـك إنـت.

- ما تقول يا عم!

وقـف واتجـه نحـو واجهـة زجاجيـة عملاقـة تكشـف ممـرات الهبـوط والإقـلاع، تجـوَّل بعينيـه حتـى وقعتـا عـلى علـم مـصر، وقـال لشريـف:

- أنا خارج.

-يـا أهـلا بالتخلـف ! متصـل بيا دولي عشـان تقوللي الخـبر العظيم دا ؟ خـارج فـين يا عم؟! سـيتي سـتارز ولا كايرو فيسـتيفال؟

- خـارج سـنة.. أو سـنتين.. أو أكـتر.. اللـه أعلـم.. بـس الـلي عايـزك تعرفـه وتقولـه لصاحبـك بتـاع المثلـث... إن نظريتـه غلـط.. أنـا

كملـت التـلات أضـلاع يـا شريـف !

- كـسر في ضلوعـك واللـه مانـا فاهـم حاجـة.. شـكلهم اسـتعجلوا وخرجـوك بـدري مـن المستشـفى !

تجاهلـه مـن جديـد وهـو يجـر حقيبتـه متجهـا للممـر الأخـير، ملقيـا نظـرة أخـيرة عـلى العلـم، واسـتطرد:

- وإذا قـال لـك إنهـم ضلعـين عشـان أنـا سـبتها ومشـيت، قـول لـه غلـط.. فهمـه أني خدتهـا معايـا.. قـول لـه إن أنـا هـي وهـي أنـا !

فـي **كـيـان للنشـر والتوزيـع**، هدفنـا نشـر كل إنتـاج إبداعـي، جودتـه عاليـة، وأفـكاره أصيلـة، فـي مختلـف مجـالات الأدب والسياسـة والصحافـة والفـن، باللغـة العربيـة والإنجليزيـة. نهتـم بالمواهـب، ونرعاهـا، ونتيـح لهـا فرصـة الوصـول للقـارئ العربـي، مـع مراعـاة أفضـل معاييـر الجـودة والاحترافيـة فـي النشـر.

رسـالتنا فـي كيـان، تشـجيع حـب القـراءة والكتابـة فـي مصـر وعالمنـا العربـي، وتطويـر مهـارات الإبـداع، وتعزيـز ثقافـة التميـز والابتـكار. كُتَّابنـا موهوبـون، متمرسـون، مصريـون، ومـن جميـع أنحـاء الوطـن العربـي، وإصداراتنـا متنوعـة، متميـزة، مختلفـة. دائمًـا نرحـب بالكتـاب الشـباب، والمواهـب الجديـدة، ونعطـي فرصـة متسـاوية للجميـع؛ لأن مرادنـا هـو الارتقـاء بفنـون الأدب العربـي ككـل، والوصـول بالإنتاجـات الابداعيـة العربيـة إلـى العالميـة .

لـو تحـب **تراسـلنا**، لـو عنـدك استفسـار، لـو حابـب ترسـل لنـا إنتاجـك الأدبـي، سـواء كـان روايـة، أو شـعر، أو مقـال، باللغـة العربيـة أو الإنجليزيـة، مـا تترددش.

ابعـت لنـا علـى:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678 -0235611772**

هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpubishing

+KayanPubishing

KayanPublishing